خلاصة التفسير

سورة البقرة

د.حسن الحسيني

تفريغ/
احمد سالم بن حميد

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الأول المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد. الصحابة رضوان الله عليهم كم واجهوا من المشاق في مكة المكرمة حين آمنوا بالدين الجديد وأظهروا إسلامهم جهرًا، وقاوموا فتن الوثنية، وتحملوا في ذلك الأذى حتى وجدوا دارًا تجمع أمتهم وتقيم دولتهم، هناك في المدينة المنورة، فهاجروا إليها، وتوحدت جهودهم لبناء أول مجتمع إسلامي. لكن لم تكن الأمور سهلة ومريحة، فقد فوجئوا هناك بمقاومة من نوع آخر. وجد الصحابة في المدينة قومًا استوطنوا أرض الحجاز منذ مدة، بعد أن فروا بعقائدهم من بطش الرومان، وقد عاشوا بين العرب الأميين بهدوء، نأوا بأنفسهم، لم يحاربوا الأصنام، ولم ينشئوا دعوة إلى عبادة الرحمن، ولم يعرضوا على أحد تعاليم السماء، أن الدين امتياز لهم، لا ينبغي لأحد أن يشاركهم فيه. فهل بقوا على هذا الموقف عندما ظهر الإسلام، وأتى من يتكلم باسم الوحي والنبوة والقرآن؟ أم خافوا امتيازهم بالدين قد خرج منهم إلى غيرهم؟ هؤلاء هم بنو إسرائيل. لقد حاول النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة أن يستميل جانبهم، وأن يتعاون معهم على الخير، ويوقع معهم العهود والمواثيق، بيد أن شرهم نمى، وحقدهم غلب، وحسدهم ظهر، ومال إليهم المنافقون من أهل المدينة. فكان المسلمون في مهجرهم يبنون بيد ويقاومون باليد الأخرى، يؤسسون مجتمعهم الصغير وفق إرشادات الوحي، ويدفعون عنه كيد كل عدو. في هذا الجو المشحون نزلت سورة البقرة، أطول سورة في القرآن الكريم، وأحفلها بالتشريعات والتعاليم. حينها تدرك بأن القرآن الكريم كان دائمًا في صميم تلك المعركة الناشئة في الجانب الداخلي في القلوب والعقول بين التصورات الجاهلية وتصورات الإسلام، أو المعركة الناشئة في الجو الخارجي بين الأمة المسلمة وبين أعدائها الذين يتربصون بها من كل جانب. سورة البقرة سورة مدنية، وآياتها مئتان وست وثمانون آية. سورة البقرة أطول سورة في القرآن، وأول سورة بعد فاتحة الكتاب، وفيها أطول آية، وفيها أعظم آية، وفيها آخر آية نزلت من القرآن. المحور الرئيسي لسورة البقرة هو الاستخلاف في الأرض وإعداد الأمة لعمارة الأرض، ولا يتحقق هذا المقصود إلا بالإيمان الصحيح وتحقيق التقوى. وقد أبرزت سورة البقرة أدوارًا عديدة للتقوى، فتارة تكون وصفة، وتارة تكون غاية، وتارة تكون وسيلة، ودائمًا تكون التقوى ميزانًا للأعمال. ولذلك نلاحظ أن مادة التقوى تكررت خلال السورة بضعًا وثلاثين مرة. وقد أوضحت السورة محور الاستخلاف في الأرض بأسلوب عجيب وترتيب بديع وتسلسل رائع يصل إلى القلوب والعقول والأفهام بسلام. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: "اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة" وهم السحرة. وأخذ البقرة يكون بقراءتها وحفظها وتدبرها والعمل بها والعناية بها. سورة البقرة سورة عجيبة، يكفي أن الصادق المصدوق قال عنها: "أخذها بركة"، فهي في الدنيا بركة، وفي الآخرة غيمة. في الدنيا تعطيك بركة في نفسك وأهلك ومالك وولدك وجسدك وروحك ووقتك وحياتك، وفي الآخرة هي الغيمة التي حولك وتظل شخصك لتشفع لك وتدفع عنك الحر والعذاب. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: "إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة". يا الله، فسورة البقرة هي نور البيوت ونور القلوب ونور الصدور ونور القبور ونور لأصحابها يوم النشور. هل سمعت بلبيد بن ربيعة العامري؟ كان من شعراء الجاهلية من فحول الشعراء، بل هو صاحب إحدى المعلقات السبع. أتعرف ماذا يعني أن تكون شاعرًا من شعراء المعلقات؟ يعني أن الناس ما برحت تتغنى بشعرك منذ ألف وأربعمائة عام. يعني أنه لا دارس للأدب دراسته قبل المرور على ساحتك، وتصفح أشعارك، وتقصي أخبارك. أليس يكفي لبيدًا من العظمة أنهم إذا أرادوا أن يبالغوا في مدح شاعرية شاعر قالوا: أشعر من لبيد؟ لبيد هذا أدرك الإسلام، فأسلم وحسن إسلامه. سأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا: "أنشدني من شعرك"، فأنشده لبيد سورة البقرة. فقال له عمر: "إنما سألتك من شعرك"، فقال له لبيد: "ما كنت لأقول بيتًا من الشعر بعد أن علمني الله سورة البقرة". يا الله، عظمة سورة البقرة جعلته يعتزل الشعر. الشعر قديمًا كان جوهرة حياة الرجل العربي، وكان الشاعر سيدًا في قومه، بل هو لسانهم وسجل تاريخهم وموثق أمجادهم. لكن لبيدًا تخلى عن كل هذا، استبدل ذلك المجد والشرف بسورة البقرة. هذه السورة غيرت محور حياته، وقلبت مسار تفكيره، وحولت ميوله الأدبية والفكرية. هذه السورة نقلته من الدنيا إلى الآخرة، وهو الذي كانت الدنيا بين يديه. فيا أيها المسلم، إن أردت عظمة ورفعة وعلوًا فعليك بسورة البقرة. يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: "كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة وآل عمران يعد فينا عظيمًا". وفي رواية: "فيها ذا شأن". فاللهم اجعلنا من أهل سورة البقرة. أما الموضوعات التي تناولتها سورة البقرة، فبمقدار ما في هذه السورة من طول كان فيها القدر الأكبر من الموضوعات. قال ابن العربي: سمعت بعض أشياخي يقول: "إن في سورة البقرة ألف أمر وألف نهي وألف حكم وألف خبر". ويمكن تقسيمها إلى ستة عناوين أساسية: المقدمة، والخلافة، والعقيدة، والشريعة، والقصة،

والخاتمة. كانت المقدمة بالكلام عن القرآن وتقسيم الناس إلى ثلاثة أصناف: المؤمن المتقي، والمعاند، والمنافق المخادع. وذكرت السورة صفات كل صنف، وبينت طبيعته وحقيقته. ثم اتجهت هذه السورة لنداء عام إلى الناس جميعًا، لدعوتهم إلى عبادة الله وحده، مع تحذير المخالفين بالجحيم، وتبشير المؤمنين بالنعيم. العنوان الثاني: موضوع الخلافة في الأرض، وتعميرها كما أراد الله، ولا يتحقق هذا المعنى إلا بالإيمان الصحيح وتحقيق التقوى لله تعالى. فكانت البداية مع ذكر قصة خلق الإنسان، وعرض النموذج الناجح لأول خليفة في الأرض، وهو آدم عليه السلام، وإظهار عداوة إبليس، وأنه لا ملاذ لنا إلا بالاعتصام بالله تعالى والانقياد لأوامره واجتناب نواهيه. ثم عرضت السورة النموذج الثاني للاستخلاف في الأرض، متمثلًا في بني إسرائيل، ففتحت السورة معهم عدة ملفات مهمة: ملف الوصايا، وملف النعم، وملف الجرائم، وملف الادعاءات، وملف المواثيق التي أخذها الله تعالى عليهم. وهو النموذج الفاشل الذي ابتلي فسخط، وأمر فعصى، وعاهد فنكث. ثم عرضت السورة النموذج الثالث للاستخلاف في الأرض، متمثلًا في أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وهو النموذج الناجح الذي ابتلي فصبر، وأمر فأطاع. العنوان الثالث في مواضيع سورة البقرة: موضوع العقيدة. فالإسلام دين مرتبط بعقيدة إبراهيم عليه السلام والأنبياء من قبله ومن بعده. وقد بينت السورة الكثير من أصول العقيدة، وذكرت أركان الإيمان، ووضحت الدلائل على إثبات الخالق سبحانه وتعالى، وناقشت المنكرين لله تعالى والبعث، وأكدت بيان ذلك خاصة في آية الكرسي. العنوان الرابع في مواضيع هذه السورة: موضوع الشريعة. وقد أطالت السورة في بيان كليات الشريعة، لشدة حاجة المسلمين إلى التشريع الرباني والتشريع السماوي. وقد كان الصحابة في بداية تكوين الدولة الإسلامية في المدينة، فنجد ضمن بنود هذا المنهج أركان الإسلام. وتمتاز سورة البقرة بأنها السورة الوحيدة التي ذكرت النهي عن أكل أموال الناس بالباطل. الآ أنَّ الملفت في الأمر أن سورة البقرة قد أسْهَبَت في تشريع أحكام الأسرة، فتحدثت عن الخطبة والزواج، وأحكام الحيض والجماع والإيلاء والطلاق. والقصة كانت لها الحضور الأبرز في سورة البقرة. بل إن اسم هذه السورة الكريمة "سورة البقرة" هو في الحقيقة إحياء لذكرى قصة عجيبة ظهرت فيها في بني إسرائيل. وأنا اليوم أقدم لكم تفسيرها تفسيرًا مختصرًا في أقل من ثلاثين حلقة، يشمل بيان المعنى، وسبب النزول، وبعض الوقفات التربوية. المهم صعب، والجهد متواضع، لكن التوفيق من عند الله. وأنصحك أخي المشاهد أن تجلب معك مصحفًا وتتابع هذه الدروس من خلال النظر في الآيات، لتزيد من فائدتها بهذه الحلقات إن شاء الله. في الحلقة القادمة سنشرع في تفسير سورة البقرة، والتي تبدأ بداية عجيبة، تبدأ بالتحدي: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. نلقاكم بإذن الله.

الدرس الثانى من الآية ١-١٦

سُورَةُ البَقَرَةِ. سُورَةٌ مَدَنِيَّةٌ. مِنْ أَبْرَزِ مَقَاصِدِهَا إِقَامَةُ الخِلَافَةِ فِي الأَرْضِ، وَإِعْدَادُ الأُمَّةِ لِعِمَارَتِهَا بِتَحْقِيقِ التَّقْوَى وَالعُبُودِيَّةِ الصَّحِيحَةِ لِلَّهِ، عَقِيدَةً وَشَرِيعَةً وَسُلُوكًا. فَقَدْ بَيَّنَتِ السُّورَةُ الكَثِيرَ مِنْ أُصُولِ العَقِيدَةِ وَأَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ وَبَرَاهِينِ البَعْثِ، مَعَ عَرْضِ جَوَانِبَ مِنَ التَّشْرِيعِ الإِسْلَامِيِّ فِي العِبَادَاتِ وَالمُعَامَلَاتِ المَالِيَّةِ، مُرُورًا بِالأَحْوَالِ الشَّخْصِيَّةِ وَالحُدُودِ وَالقِصَاصِ وَقَوَانِينِ السِّلْمِ وَالحَرْبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَسَمَاءٌ بِنَارٍ مَرَاتِبُ الإِحْسَانِ،

﴿الم﴾ (١)

بَدَأَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ بِمِفْتَاحٍ عَجِيبٍ لِأَوَّلِ سُورَةٍ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ بَعْدَ الفَاتِحَةِ: "الم"، إِعْلَانٌ لِلتَّحَدِّي، وَبِدَايَةٌ حَيَّرَتِ الأَفْهَامَ وَزَلْزَلَتِ العُقُولَ. "الم" حُرُوفٌ هِجَائِيَّةٌ جَاءَتْ لِبَيَانِ إِعْجَازِ القُرْآنِ، وَالإِشَارَةِ إِلَى التَّحَدِّي بِالقُرْآنِ. فَقَدْ عَجَزَ العَرَبُ قَاطِبَةً عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ، بَعْدَ أَنْ تَحَدَّاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ. فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ: كَيْفَ تَعْجِزُونَ عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ؟ مَعَ أَنَّهُ كَلَامٌ عَرَبِيٌّ، مُكَوَّنٌ مِنْ حُرُوفٍ هِجَائِيَّةٍ، يُنْطَقُ بِهَا كُلُّ أُمِّيٍّ تَعَلَّمَ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ عَجَزْتُمْ!

"ذلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ". (٢)

ذَلِكَ القُرْآنُ لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، خُصُوصًا وَقَدْ تَحَدَّى اللَّهُ بِهِ العَرَبَ، وَهُمْ أَهْلُ اللُّغَةِ وَاللِّسَانِ، وَأَهْلُ الفَصَاحَةِ وَالبَيَانِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ عَجَزُوا. ثُمَّ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى القُرْآنَ بِوَصْفٍ آخَرَ: بِأَنَّهُ مَصْدَرُ هِدَايَةٍ وَإِرْشَادٍ لِمَنْ لَهُ أَهْلُ التَّقْوَى، يَهْدِيهِمُ القُرْآنُ إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ.

يَا أَهْلَ القُرْآنِ، إِنَّ نُصُوصَ القُرْآنِ الكَرِيمِ لَتَسْكُبُ فِي قَلْبِ مَنْ يَقْرَأُهَا مِنَ الإِنَاثِ وَالذُّكُورِ، وَتَفْتَحُ لَهُ مِنْ أَبْوَابِ العِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ، وَتَفِيضُ عَلَيْهِ مِنَ الرُّوحِ وَالمَشَاعِرِ، وَمِنْ ثَمَّ يَجِدُ القَلْبُ فِيهِ الهُدَى وَالرَّشَادَ. فَالهُدَى ثَمَرَةُ التَّقْوَى. هَذَا قَسَمَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ النَّاسَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: المُؤْمِنُونَ، وَالكَافِرُونَ، وَالمُنَافِقُونَ. وَبَدَأَتْ بِذِكْرِ صِفَاتِ المُؤْمِنِينَ المُتَّقِينَ،

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(٣)

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى صِفَاتِ المُتَّقِينَ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِالقُرْآنِ وَهُدَاهُ. فَمِنْ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالأُمُورِ الغَيْبِيَّةِ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا، وَلَا يَقِفُونَ عِنْدَ المَادِّيَّاتِ وَالمَحْسُوسَاتِ كَالبَهَائِمِ. فَالبَهَائِمُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تَحْصُرُ إِدْرَاكَهَا فِي الحَوَاسِّ فَقَطْ، عَلَى عَكْسِ الإِنْسَانِ الَّذِي وَهَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى حِسًّا وَعَقْلًا. فَالحَوَاسُّ لَيْسَتْ نِهَايَةَ الطَّرِيقِ، وَإِنَّمَا الحَوَاسُّ هِيَ نَوَافِذُ العَقْلِ، لِتُوصِلَهُ بِالعَالَمِ الخَارِجِيِّ. فَيَطَّلِعُ العَقْلُ مِنْ خِلَالِ الحَوَاسِّ عَلَى الحَيَاةِ، وَعِنْدَما تَدَخُّلِ مُدْرَكَاتِ الحَوَاسِّ إِلَى العَقْلِ، يَقُومُ العَقْلُ بِدَوْرِهِ فِي التَّفْكِيرِ وَالتَّمْيِيزِ، وَالفَحْصِ وَالرَّبْطِ، وَالتَّحْلِيلِ وَالاسْتِنْتَاجِ، وَيَقِيسُ الغَائِبَ عَلَى الشَّاهِدِ، وَالنَّظِيرَ عَلَى النَّظِيرِ، وَالفَرْعَ عَلَى الأَصْلِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَهَمَّاتِ العَقْلِ. ثُمَّ يَصِلُ العَقْلُ إِلَى نَتِيجَةٍ: أَنَّ الوُجُودَ أَكْبَرُ وَأَشْمَلُ مِنْ ذَلِكَ الحَيِّزِ الصَّغِيرِ المَحْصُورِ فِي إِدْرَاكِ الحَوَاسِّ. فَيُؤْمِنُ بِالغَيْبِ وَبِمَا وَرَاءَ المَادَّةِ. وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ، يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ فَهْمُ القُرْآنِ وَالانْتِفَاعُ بِالقُرْآنِ. وَلِذَلِكَ مَدَحَ اللَّهُ المُتَّقِينَ بِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ.

وَمِنْ صِفَاتِ المُتَّقِينَ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا وَآدَابِهَا، وَهِيَ مَظْهَرٌ لِطَاعَةِ الرَّحْمَنِ، وَأَسَاسٌ لِبِنَاءِ الفَرْدِ. وَمِنْ صِفَاتِ المُتَّقِينَ إِنْفَاقُ المَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهُوَ مَظْهَرٌ لِلرَّحْمَةِ بِالإِنْسَانِ، وَأَسَاسٌ لِبِنَاءِ المُجْتَمَعِ.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)

وصفات المتقين أنهم يؤمنون بالوحي الذي أُنزل على محمد عليه الصلاة والسلام، وبالوحي الذي أُنزل على الأنبياء السابقين بدون تفريق. كما أنهم يؤمنون بالآخرة إيمانًا جازمًا لا شبهة فيه ولا شك.

أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. (٥)

فمن جمع هذه الصفات رزقه الله تعالى طريق الهداية، وجعله من الفائزين في الدارين.ولما بين الله تعالى في الآيات السابقة صفات المؤمنين المتقين الذين صلح ظاهرهم وباطنهم، ذكر بعد ذلك صفات الكافرين الذين فسد ظاهرهم وفسد باطنهم.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)

كفروا بالله عنادًا وكذبوا بالقرآن جحودًا كجَهْلٍ وأُبَيٍ ونحوهما، أمثال هؤلاء الكفار مستمرون على ضلالهم وعنادهم. فإنذارك لهم وعدمه سواء، لا ينتفعون به فلا تأسَ عليهم.

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٧)

إعراض الكفار عن الحق ليس بسبب التقصير في دعوتهم، وإنما العيب فيهم، فقلوبهم وأسماعهم مختومة، لا يدخلها نور ولا يشرق فيها إيمان، وأبصارهم عليها غطاء فلا يبصرون هدى ولا يفقهون علمًا، مع وضوح الحق وبروز الحجة. هؤلاء لهم في الآخرة عذاب شديد.

ولما بين الله تعالى صفات الكافرين الذين فسد ظاهرهم وباطنهم، بين بعد ذلك صفات المنافقين الذين فسد باطنهم وظهر صلاح ظاهرهم فيما يبدو للناس. يظهرون الإيمان بالله وباليوم الآخر وهم في الباطن كافرون.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)

الصنف الثالث من الناس هم المنافقون، وهؤلاء أشد خطرًا على الإسلام من الكفار الخالصين، وأكثر خبثًا وأوسع إجرامًا.

هم قومٌ يُثيرون الفتنَ ويُضعِفون الصفَّ المسلمَ، ويَخدمون العدوَّ. ولذلك نجد أن الله تعالى تكلم عن المؤمنين في أربع آياتٍ، وتكلم عن الكفار في آيتين، أما المنافقون فتكلَّم الله عنهم في ثلاث عشرةَ آيةٍ؛ لأن المنافقين في كل زمانٍ ودولةٍ هم الخطرُ الداهمُ على المجتمعاتِ. فَأضرارُهم بالغةٌ، ومخادعاتُهم هادمةٌ. وكثر تحذيرُ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ من النفاقِ والمنافقينَ.

تبدأ الآياتُ في كشفِ حقيقةِ المنافقينَ. فهم قومٌ يُظهِرون الإيمانَ باللهِ والإيمانَ باليومِ الآخرِ قولًا باللسانِ فقط، إلا أن قلوبَهم تُنكِرُ ذلك. فيردُّ اللهُ تعالى عليهم دعواهم أنهم ليسوا بمؤمنينَ وإن تظاهروا بذلك.

يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)

أسلوبُ المنافقينَ هو أسلوبُ المخادعِ، وهم يعتقدون بجهلِهم أنهم بتصرفاتِهم يخدعون اللهَ، وأن حقيقتَهم تخفى على المؤمنِ. وما عَلِموا أن اللهَ تعالى لا يُخدَعُ، وأن المؤمنَ ليس بأحمقَ. يظنون أنفسَهم أذكياءَ، وأن خداعَهم ينطلي على أهلِ الإيمانِ، وهم في الحقيقةِ حمقى، لا يخدعون إلا أنفسَهم، ولا يحسُّون بذلك بتكاملِ حماقتِهم.

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)

سببُ وقوعِ هؤلاءِ في النفاقِ أن قلوبَهم مريضةٌ، قد مُلِئَتْ شكًّا غيظًا وحسدًا، حتى أصابَهم العمى، لا يُدركون أبسطَ الأشياءِ. فالمنافقون أناسٌ مرضى؛ لأن النفاقَ ينشأ عن جُبنٍ ولؤمٍ وخبثٍ. فزادَهم اللهُ شكًّا إلى شكِّهم، ومرضًا إلى مرضِهم. هذا في الدنيا، أما في الآخرةِ فلهم عذابٌ شديدٌ مؤلمٌ بسبب كذبِهم في ادعاءِ الإيمانِ.

ثم شرعَ اللهُ تعالى في بيانِ صفاتِ المنافقينَ القبيحةِ وأحوالِهم الشنيعةِ.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)

من صفاتِ المنافقينَ أن المؤمنينَ إذا ناصحوهم وقالوا لهم: "لا تسعَوا في الأرضِ فسادًا، ولا صَدًّا عن سبيلِ اللهِ تعالى"، كان جوابُ المنافقينَ: "ليس الأمرُ كما زعمتم، فليس شأنُنا الإفسادَ أبدًا، إنما نحن أناسٌ مصلحونَ، نسعى للخيرِ والصلاحِ". لاحظوا كيف انقلبت لديهم الموازينُ والحقائقُ، فتصوروا الفسادَ بصورةِ الصلاحِ، ويتبجحون بأنهم مصلحونَ وذلك لما في قلوبِهم من المرضِ. وما أكثرَ هؤلاءِ في كلِّ زمانٍ! يصدقُ عليهم قولُ اللهِ تعالى: "أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا". ولذلك ردَّ اللهُ تعالى عليهم أبلغَ ردٍّ:

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢)

"أَلَا فَانْتَبِهُوا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ أَهْلُ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ حَقًّا لَا غَيْرَهُمْ". ولكن هؤلاءِ المنافقينَ لا يُدركون ولا يحسُّونَ؛ لانطماسِ نورِ الإيمانِ في قلوبِهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

ومع خبثِ المنافقينَ، إلا أن المؤمنينَ كانوا حريصينَ على هدايتِهم. فإذا قالوا لهم: "آمِنُوا إِيمَانًا صَادِقًا لَا يَشُوبُهُ نِفَاقٌ وَلَا رِيَاءٌ، كَمَا آمَنَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ"، أخذَ المنافقونَ يتطاولونَ على أهلِ الفضلِ والسَّبْقِ، وقالوا: "أَنُؤْمِنُ كَإِيمَانِ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ وَالْجُهَلَاءِ؟ أَمْثَالُ صُهَيْبٍ وَعَمَّارٍ وَبِلَالٍ؟ نَاقِصِي العقل ضَعِيفِ الرَّأْيِ، مَحْدُودِي التَّفْكِيرِ". وهؤلاءِ المنافقونَ إنما سَفَّهوا أهلَ الإيمانِ لتحقيرِ شأنِهم؛ لأن أكثرَ المؤمنينَ كانوا فقراءَ مستضعفينَ. وجَهلوا أن ناقصَ العقل وضعيفَ الرأيِ هو من يرى طريقَ النورِ أمامَه فلا يسلكُه. فكان جوابُ القرآنِ عليهم: "إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ". فالمنافقونَ هم السفهاءُ حقًّا، ولكن لا يعلمونَ بحالِهم. وهذا من الجهلِ المركَّبِ: سفيهٌ جاهلٌ، ويجهلُ أنه سفيهٌ جاهلٌ. وهذا أبلغُ في العمى وأبعدُ عن الهدى.

وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: "آمَنَّا"، وإذا خلوا إلى شياطينِهم قالوا: "إِنَّا مَعَكُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ"(١٤).

ومن صفاتِ المنافقينَ أنهم إذا رأوا المؤمنينَ وصادفوهم أظهروا لهم الإيمانَ والموالاةَ والمحبةَ نفاقًا ومصانعةً. لكن المنافقينَ إذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائِهم وأصحابِهم من شياطينِ الإنسِ وسادةِ الشرِّ وشيوخِ الفسادِ قالوا: "إِنَّا مَعَكُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ"، أي نحن على دينِكم وطريقتِكم، ولكننا نُظهِرُ الإيمانَ للمسلمينَ سخريةً بهم واستهزاءً. وهذا أسلوبٌ في غايةِ الخسةِ والدناءةِ والانحطاطِ، يعجزُ صاحبُ العقلِ الصحيحِ والفطرةِ السليمةِ أن يفهمَه. كيف يتبنى المرءُ رأيًا ويكتمُ هذا الرأيَ، ثم يُظهِرُ خلافَه، ويجبنُ عن مواجهةِ من يختلفُ معه، ويتظاهرُ بالموافقةِ عند لقائِه، ثم يتخذُ من هذا الستارِ وسيلةً للإيذاءِ والكيدِ والمكرِ؟! ألا قَبُحَ اللهُ النفاقَ وقَبُحَ اللهُ أهلَه!

فانظر كيف كان ردُّ القرآنِ عليهم:

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)

ألا ما أبأسَ من يستهزئُ به اللهُ! ألا ما أشقى من يستهزئُ به جبَّارُ السماواتِ والأرضِ! وما ألطفَ أن يدافعَ اللهُ تعالى عن أهلِ الإيمانِ فيستهزى من المنافقينَ في مقابلِ استهزاءِ المنافقينَ بالمؤمنينَ! جزاءً لهم من جنسِ عملِهم. ومن استهزاءِ اللهِ تعالى بالمنافقينَ أنه يزيدُهم في فجورِهم، ويُملي لهم ويُمهلُهم أكثرَ في ضلالِهم، فيبقون حائرينَ متخبطينَ، ثم يأخذُهم بعذابِه.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)

الذين يرون الحقَّ أمامَهم، ويرون النورَ بين أيديهم، ويرون رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بأعينِهم، ويسمعون القرآنَ غضًّا طريًّا، ثم يعرضونَ. ماذا يستحقون من وصفٍ؟ قومٌ استبدلوا الكفرَ بالإيمانِ، والفانيةَ بالباقي، والدنيا بالجنةِ. أليسوا تجارًا حمقى؟! اشتروا الضلالةَ وباعوا الهدى. صفقاتُهم كاسدةٌ، وتجارتُهم خاسرةٌ.

لِخَسَارَتِهِمُ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ إِلَى الْحَقِّ أَبَدًا. وَيَا لَهَا مِنْ حَسَرَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ! هَذِهِ الْإِطَالَةُ عَلَى حَالِ الْمُنَافِقِينَ وَكَشْفِ صِفَاتِهِمْ وَفَضْحِ طَبِيعَتِهِمْ تُوحِي بِمَدَى ضَخَامَةِ الدَّوْرِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ الْمُنَافِقُونَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمَدَى حَاجَةِ الْمُصْلِحِينَ إِلَى كَشْفِ الأَعْيَابِهِمْ وَخِدَاعِهِمْ دَاخِلَ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ. وقانا اللهُ تَعَالَى شَرِّهِمْ

الدرس
الثالث١٧ـ٢٩

لضخامة الدّور الذي يمكن أن يقوم به المنافقون داخل الصفِّ المسلم، يمضي سياق سورة البقرة بضرب الأمثال لهذه الجماعة ليفضح طبيعتَها، وسوءَ تصرفها، وشدةَ حيرتها، وعِظَمَ خسارتها في نهاية المطاف.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧)

ضرب الله -تعالى- للمنافقين مثلين: مثلًا ناريًّا، ومثلًا مائيًّا، زيادةً في الكشف والبيان، ليحذّر المجتمع المسلم من خطرهم.

المثل الناري للمنافقين

المنافقون كمثل قومٍ أوقدوا نارًا، فلما أنارت النارُ المكان، لم ينتفعوا بها في معرفة الطريق الذي ينقذهم، بل فضّلوا العيش في الظلام، كما هو واقعهم. حين قدّم الله تعالى لهم أسباب الهداية، فعرفوا الحقَّ والهدى، لكنهم مالوا إلى النّفاق والعمى. وعندئذٍ، ذهب الله تعالى بنورهم، فأصبحوا كالعُمي لا يبصرون شيئًا، وأخذوا يتخبّطون في الظلام ولا يهتدون سبيلًا.

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨)

فهؤلاء المنافقون صمٌّ لا ينتفعون من سَماع الحق، خُرسٌ لا ينطقون بالحقّ، عُميٌ لا يُبصرون الحقّ. هؤلاء، لما أغلقوا منافذ حواسهم، ستكون النتيجة الطبيعيّة أنهم لا يرجعون عمّا هم فيه من الضّلال والظّلمات.

أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)

المثل المائي للمنافقين

أما المثل الثاني للمنافقين، فهو مثلٌ مائي: قومٌ نزل عليهم مطرٌ كثيرٌ منهمر، من سحابٍ فيه ظلماتٌ متراكمة، فيه رعدٌ قاصفٌ وبرقٌ خاطفٌ في ليلةٍ مظلمةٍ. ومن شدّة صوت الرّعود والصواعق، جعلوا يسدُّون آذانهم بأصابعهم. إنه مشهدٌ سوداويّ، مليءٌ بالحركة، مشوبٌ بالاضطراب. مطرٌ من السماء، وظلمةٌ من السّحاب، وصوتٌ من الرّعد، وبرقٌ يخطف بالبصر، وأضواء وأصداء. مشهدٌ يجسّد حالتهم النفسيّة، وما هم فيه من التّيه والضّلال، والفزع والحيرة، أدّى بهم إلى الذّعر والخوف من الموت.

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

كلما أضاء البرق لهم الطريق، مشوا في ضوئه خطوات، وإذا اختفى البرق توقفوا عن السّير وبقوا في الظلام. وهؤلاء، لما اختاروا الصّممَ والعَمَى المعنويين، خوّفهم الله بعد ذلك بأنّه قادرٌ على أن يصيبهم بالصّمم والعمَى الحِسيّين: ﴿وَلَو شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمعِهِم وَأَبصارِهِم﴾ ليرتدعوا عن بعض شرّهم ونفاقهم وفي هذا المثل تصويرٌ لما هم فيه من الاضطراب وغاية الجهل فكان المطر مثلًا للذّكر والقرآن وصوت الصواعق مثلًا لما فيه من الحجج والبيان

وضوء البرق مثلًا للدليل والبرهان وجعل سدَّ الآذان من شدة الصواعق مثلًا لإعراض المنافقين عن الحقّ، وعدم رغبتهم في الاستماع إليه، كما كان يفعل قوم نوح عليه السلام وهكذا هم المنافقون، يعرضون عن الإسلام مع وضوحه، ويُفضّلون العيش في ظلمات الكفر والشّك والضلال.

يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)

النداء للإيمان والعبادة

بعد أن ذكر الله تعالى أصناف النّاس في أول السورة: المتقون والكافرون والمنافقون، يأتي هذا النّداء من الله -تعالى- لهؤلاء وللبشرية جمعاء أن تختار الإيمان، فتعبد الله -تعالى- وحده، لأنه الربّ الذي خلقكم وخلق آباءكم من قبل، فأخلِصوا له العبادة! لتكونوا في زمرة المتقين الفائزين بالهدى.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)

وحدانية الله وعظمة خلقه

في هذه الآيات بيانٌ لإحدى كليات التصوّر الإسلامي، وهي:

- وحدةُ الكون.

- تناسقُ وحداتِ الكون.

- صداقةُ الكون للحياة والإنسان.

فهذا الكون، أرضُهُ مفروشةٌ ممهدةٌ لهذا الإنسان، وسماؤهُ مرفوعةٌ مبنيةٌ بنظام، وغيومُه تمطر بالماء لتُخرج من أرضه مختلفَ الزّروع والثمار، لتكون رزقًا وطعامًا لهذا الإنسان، وفق منظومةٍ متناسقةٍ مُتقنةٍ مُحكمة. والفضل في هذا كلِّه للخالق الواحد، لذا فهو المستحقّ للعبادة وحده. فلا تجعلوا لله شركاء وأنتم تعلمون أنَّ الله هو الخالق وحده!

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)

التحدي بالإتيان بمثل القرآن

ولما أثبت الله سبحانه وتعالى وحدانيته، ثنّى ببيان إعجاز القرآن، وفي ذلك إثبات صدق النبيّ العدنان ﷺ. فيا أيها الناس! إن كنتم في شكٍّ من صدق هذا القرآن المعجِز في بيانه، والمحكَم في تشريعه، والمتقَن في نظمه، الذي أنزلناه على محمد ﷺ، فإليكم هذا التحدّي: فأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثل هذا القرآن! وليس هذا فحسب، بل جدّوا واجتهدوا! وادعوا شهداءكم واجمَعُوا جموعكم! واستعينوا برؤسائكم وآلهتكم وإنسِكم وجنِّكم! وأتوا بسورةٍ تماثله في قوة البلاغة، وسَدَاد التشريع، واتقان النظم، والإخبار بالمغيَّبات، إن كنتم صادقين في دعواكم، أنّ القرآن ليس من عند الله!

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)

يا أيّها الكافرون! فإن لم تأتوا بمثل هذا القرآن في الماضي، ولن تأتوا بمثله في المستقبل، فإذا كان هذا حالكم: عاجزون في الماضي والحاضر والمستقبل، فاتقوا النار! احذروا نار الجحيم! تلك النار التي تُوقَد بالناس، وبالأصنام الحجريّة التي كنتم تعبدونها. فهذه النار قد هيّأها الله للكافرين، ينالون فيها العذاب المهين.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

بشارة المؤمنين

وفي المقابل، جاءت البشارة للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، بأنَّ لهم حدائق وبساتين، ذاتِ أشجار ومساكن، تجري أنهار الجنة من تحت قصورها. كلما أُطعموا من ثمار الجنّة صنفًا قالوا متعجّبين: هذا الصّنف يُشبه الثمرةَ التي رُزقنا من قبل. فإذا ذاقوه وجدوه شيئًا جديدًا. كان التّشابه مع الصّنف السابق في اللون والمنظر فقط، أما الطّعمُ والمذاقُ واللذّةُ فكلُّهم مختلفون. ولهم في الجنّة أزواجٌ مبرَّأة من كلّ العيوب، طاهراتٌ من كل قذر ورجس، حسيٍّ ومعنوي. فهنَّ خَيراتٌ حسان، في غاية الجمال والكمال، متحببات إلى أزواجهنَّ بأحسن الأخلاق. ونعيم أهل الجنّة دائمٌ لا يزول.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦)

ضرب الأمثال في القرآن

هذه الآية الكريمة جاءت جوابًا على من أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الصغيرة، كالذّباب والعنكبوت والبعوض. وما عَلِم هذا الجاهل المنكر بأنّه تعليمٌ من الله تعالى لعباده. فالله تعالى لا يستحيي أن يضرب الأمثال بالبعوض فما فوقها في الكِبَر أو دونها في الصِّغر. فالمثَل جُعِل لكشف المعنى وتوضيحِه،

وطريقة القرآن في ضرب الأمثال، بأنّه إن كان المضروب له المثل قويًّا عظيمًا كالحقِّ والإسلام، ضُرب مثله بالنور والضياء، وإن كان ضعيفًا حقيرًا كالأصنام والأوثان، ضُرب مثله بمثل الذباب والبعوض والعنكبوت، على أنه لا فرق عند الله تعالى بين البعوضة والجمل في الخَلق والتقدير.

وأمام هذه الأمثال، انقسم الناس إلى قسمين:

- فالمؤمنون في قلوبهم نور يهديهم إلى التصديق بأنَّ هذا كلام الله تعالى، ويعلمون أنَّ فيه حِكمًا إلهيّة.

- وأما الكفار فيتساءلون استهزاءًا: ماذا أراد الله من ضرب الأمثال بمثل هذه الأشياءِ الحقيرة كالبعوض؟

فيأتي الجواب من الله: إنّ في هذه الأمثال هداياتٍ وتوجيهاتٍ وكذا اختبارًا للناس:

- فمنهم من يضلُّهم الله بهذه الأمثال لإعراضهم عن تدبُّرها وهم كثير.

- ومنهم من يهديهم بسبب انتفاعهم بهذه الأمثال وهم كذلك كثير.

لا يقع في الضّلال إلا المستحقّ لذلك كالفاسقين ثم عدد الله هؤلاء الفاسقين.

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)

أوصاف الفاسقين

من صفات الفاسقين أنّهم:

- ينكثون العهد الذي أخذه الله عليهم بعبادة الله -تعالى- وحده، والإيمانِ بمحمد ﷺ.

- يتصفون بقطع ما أمر الله -تعالى- بوصله كالأرحام.

- يسعون لنشر الفساد في الأرض، وإثارة الفتن والشكوك، وقلبِ الحقائق.

فهؤلاء هم الخاسرون الحقيقيّون: خسِروا الدنيا بافتضاحهم، وخسِروا الآخرة بغضب الله عليهم.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)

الدلائل على قدرة الله في خلق الإنسان

في هذه الآية الكريمة مناقشةٌ لأولئك الكفار المنكرين لربوبية الله -سبحانه وتعالى- بأسلوبٍ مادي محسوس، مأخوذٍ من الواقعِ القريبِ المشاهَد، ومن التأمُّل في وضعِ الإنسان، ومراحلِ تغيره وانتقاله من عالمٍ إلى عالم آخر.

فيا أيها الكفار! كيف تكفرون بالله وأنتم تشاهدون دلائل قدرته في أنفسكم؟ فقد كنتم عدمًا، لا شيء، وهذه الميتة الأولى، فأنشأكم وأحياكم، فمن أين جاءتكم الحياة؟ ثم هو يميتكم الموتة الثانية، ثم يحييكم الحياة الثانية كما أحياكم في المرة الأولى، لا يعجزه شيء، ثم يُرجعكم إليه - سبحانه - ليحاسبكم على ما قدّمتم.

وما زال هذا السؤال مطروحًا إلى اليوم: من الذي أنشأ لكم هذه الحياة؟ من الذي أوجد هذه الظاهرة الجديدة الزائدة على ظاهرة الموت والسّكون؟ إنّ طبيعة الحياة شيء وطبيعة الموت شيءٌ آخر، فمن أين جاءت هذه الحياة؟

إنه لا جدوى من الهروب من مواجهة هذا السؤال، الذي يلحُّ على العقل. أيعقل أنّ الحياة جاءت بغير قدرةِ خالق؟ فمن أين جاءت هذه الحياة التي تَسلُك في الأرض سلوكًا آخر، تختلف عن طبيعة الجمادات السّاكنة؟ قولوها! لقد جاءت من عند الله، فهذا هو أقرب جواب، وإلا فليقل من لا يريد التسليم!: أين هو الجواب؟

أسمحو لي أن أقول لكم إنّ الكفر بالله في مواجهة هذه الدلائل الواضحة لهو اعتقادٌ قبيح ورأيٌ سخيف لا يحترم.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

خلق الكون لخدمة الإنسان

ثم ذكّرنا القرآن الكريم بمظهرٍ آخر من مظاهر قدرة الله عزّ وجلّ، وهو خلق جميعِ ما في الأرض لخدمة الإنسان من بهائم وأنهار، وجبالٍ وأشجار، ومياهٍ وثمار وغير ذلك مما لا يُحْصَى. وأنتم تنتفعون بما سخَّره الله لكم، ثم ارتفع الله سبحانه وتعالى على السماء، فخلقهنَّ سبع سماوات مستوِيات: رفعها الله سبحانه وتعالى بقدرته، وأودع فيها دقائقه وأسراره، وقد أحاط علمُه بكل شيء -سبحانه وتعالى-. فعلى الإنسان أن يتأمّل في عظمة هذا الكون! ليتوصّل بذلك إلى الإيمان بالله.

فيا عجبًا! كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

الدرس
الرابع ٣٠-٣٩

امتنَّ الله تعالى على البشر بنعمة الخلق والإيجاد، وأنّه سخر لهم ما في الأرض جميعًا. أتبع ذلك ببدء خلقهم، وبتشريف أبيهم آدم بجعله خليفةً في الأرض، وإسكانه دار الكرامة، وإسجاد الملائكة له تعظيمًا لشأنه.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)

هذا شروعٌ في ذكر فضل أبي البشر آدم -عليه السلام-، وقد جرى قبل خلقِه حوارٌ في الملأ الأعلى، صوّره القرآن الكريم بتفاصيله. حوارٌ بين الله تعالى وبين الملائكة لإظهار دور آدم وذريّته في الأرض، حيث قال الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرضِ خَلِيفَةً﴾، أي: خالقٌ في الأرض ومتخذٌ فيها خليفة. هو آدم -عليه السلام- يقوم بسُكناها وعمارتها وفق مُراد الله تعالى، ويكون له فيها ذريةٌ ونسل، ويقوم بعضهم بالزعامة والتوجيه، وتنفيذ الأحكام حتى يعمر الكون بطاعة الله.

فسأل الملائكةُ ربَّهم، سؤال استرشاد لا اعتراض، عن الحكمة من جعل آدم وبنيه خلفاء في الأرض، وفيهم من سيُفسد في الأرض بالمعاصي، ويريق الدماء بالظلم والاعتداء، لوجود نزعة الخير والشرّ في الجنس البشري. وأنت، يا رب! تريد عمارة الأرض، فكيف تجعل فيها من يفسد فيها؟ وهذا بحسب ظنّ الملائكة أنّ المخلوق الجديد سيَحدث منه ذلك، فنزّهوا الله تعالى عن ذلك وعظّموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله تعالى على وجهٍ خالٍ من المفسدة، فقالوا: ﴿وَنَحنُ نُسَبِّحُ بِحَمدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أي: نحن ننزّهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك، ونمجّدك ونعظّم أمرك.

فكان الجواب من الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعلَمُ مَا لَا تَعلَمُونَ﴾، أي: إنّي أعلم من المصالح ما خُفي عليكم، وأعلم من الحِكَم ما لا تعلمونها، وأعلم كيف تَصلح الأرض وكيف تُعمَر، ومن الأصلح لعمارتها. فقد أودع الله تعالى في الإنسان من الطاقات ما يستطيع أن يؤدّي بها رسالته في هذه الحياة. والإنسان فيه دواعي الخير والشر، وبمدافعة الخير للشرّ تعمر الأرض. وبهذا تظهر حكمة إرسال الرسل، فاطمئن أيها الإنسان! إنّ العليم الخبير أعلم منك بما يصلح لك.

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)

لبيان منزلة آدم -عليه السلام- علّمه الله تعالى أسماء الأشياء والأجناس الماديّة من نباتٍ وجمادٍ وحيوان، ألفاظها ومعانيها مما تعمر به الدنيا، ثم عرض تلك المسمَّيات على الملائكة قائلًا: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي: أخبروني بأسماء هذه المسمّيات التي ترونها! إن كنتم صادقين فيما تقولون أنكم أكرمُ من هذا المخلوق وأفضلُ منه.

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)

فوقف الملائكة عاجزين أمام سؤال الله تعالى لهم، وقالوا معترفين بتقصيرهم: سبحانك يا ربّ! "لا علم لنا إلا ما علّمتنا"، إنك أنت العليمُ بكل شيء، الحكيمُ في صنع كل شيء.

قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

لمّا أظهر الملائكة عجزهم قال الله تعالى لآدم: ﴿أَنبِئهُم بِأَسمَائِهِم﴾، أي: أعلمهم بالأسماء التي عجزوا عن علمها. فأخذ آدم عليه السلام يخبر الملائكة بأسماء كل الأشياء المعروضة، حينئذٍ قال الله تعالى للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، أي: إني أعلم ما غاب عنكم في السموات والأرض وما حضر، ولا أجعل الخليفة في الأرض عبثًا، وأعلم ما تُظهرون من أحوالكم وما تحدِّثُون به أنفسكم.

وفي هذه القصة يظهر مدى تكريم الله تعالى لآدم وبنيه باختياره خليفة، وتعليمِه ما لا تعلمهُ الملائكة، وخَصّه بالمعرفة التّامة دونهم من معرفة الأسماء، والأشياء، والأجناس، واللغات. وندرك أنّ العلم هو أحد متطلّبات الخلافة في الأرض، فكلّما زاد حظّك في العلم، زاد حظّك في الفضل.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)

قصةٌ ثانيةٌ توضّح لنا نوعًا آخر من تكريم الله تعالى للإنسان: حين أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم، سجودَ احترامٍ وتحيّة، لا سجودَ عبادة وتأليه، كما يفعل الكفار مع أصنامهم، سجد الملائكة مسارعين لامتثال أمر الله، إلا ما كان من إبليس، الّذي كان من الجنّ، فإنه امتنع من السجود، واستكبر قائلا: أأسجد له وأنا خيرٌ منه؟ خلقتني من نار وخلقته من طين. سبحان الله! منعه حسده وغروره وتكبّره من امتثال أمر الله. وهكذا ترك الاستجابة لأمر الله فاستحق اللعنة، وكان من الكافرين.

فتأمّل يا ابن آدم! كيف كرّمك الله وشرّفك غاية التكريم والتشريف، بأن جعلك خليفة في الأرض وعلّمك ما لم تكن تعلم، وأمر الملائكة بالسجود لأبيك، وزاد التكريم لآدم أكثر فأكثر بسكنى الجنّة.

وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)

خلق الله تعالى أمّنا حواء من ضِلْع أبينا آدم: كان نائما فاستيقظ فرآها فأعجبته، فأنسَ إليها وأنسَت إليه. خلق الله تعالى حواء لتكون سكنا لآدم في دار الكرامة. ومن ألوان التكريم الإلهي للإنسان: إسكان آدم وحواء في الجنّة، الجنة الحقيقية العلوية، والتمتُّع فيها حيث شاءا بكلّ ما فيها، والأكلِ من ثمارها وزروعها أكلًا رغدًا، أي هنيئًا واسعًا ليس فيه تنغيص ﴿حَيثُ شِئتُما﴾ أي: من أي مكان في الجنة أردتما الأكل فيه.

لقد أكرم الله تعالى آدم وحواء إكرامًا عظيمًا، ووهبهما هذا النعيم الكبير في الجنّة، وكلُّ الذي مُنِعا منه هو الأكل من شجرةٍ واحدة فقط، امتحانًا وابتلاءً لهما. هل يستجيبان أم لا؟ قيل: بأنها شجرة العنب، وقيل التفاح لكن كلّ ذلك لم يثبت. فهذه الشجرة غير معلومة النوع فتبقى على إبهامها. ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فكلّ معصية إذن هي ظلم للنفس.

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦)

حسد إبليسُ آدم: كيف يكون في هذا النعيم المقيم؟ يأكل ويشرب ويَنعم في الجنّة، فأراد أن يُخرجه وزوجَه من هذا النعيم، فأخذ إبليس بالوسوسة لهما، ويزيّن لهما الأكل من الشجرة المحرّمة، ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ فلم يزل الشيطان يوسوس لهما ويزيّن حتى (أزلّهما) أي: أوقعهما في الزلة والخطيئة بالأكل من تلك الشجرة، وهنا تظهر غريزةُ الإنسان وضعفُه أمام المغريات.
فكان جزاء آدم وحواء إخراجُهما من الجنّة التي كانا فيها. آهٍ ثم آهٍ!! كم هي محرقةٌ نظرتُهما الأخيرة إلى الجنّة! لكنّه شؤم المعصية. إنزلوا إلى الأرض ومعكما الشيطان! بعضكم أعداء بعض، ولكم في الأرض استقرارٌ وبقاءٌ وتمتُّعٌ بما فيها من خيرات إلى أن تنتهيَ آجالُكم وتقومَ الساعة.

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)

آدم عليه السلام، لمّا أكل من الشجرة، ظهرت عورته بعد ما كانت مستورة، فصار لهذه المعصية أثرٌ في الباطن وأثرٌ في الظاهر، حتى انخلع اللباس وانكشفت عورة آدم. ولما ظهرت عورته خَجِل وأخذ يُلْزِق على عورته من أوراق شجر الجنة ليستر عورته.

كم هو مؤلمٌ زوال النّعم! كم هو محرقٌ عصيان الخالق! وهو في هذه الحال، ألهمه الله تعالى التّوبة بكلمات. سبحان الله! آدم هو نفسه الذي علّمه الله تعالى الأسماء كلّها ولكنه لم يجد في تلك الكلمات والمفردات ما ترقى لمقام التوبة من زلّته، فجاءت الرّحمة من الله لعبده آدم، وعلّمه الدّعاء، وألهمه الكلمات ليتوب بها من خطئه.

فالتوبة توفيقٌ والنّدم لطفٌ والدّمعة رحمة. فأخذ آدم تلك الكلمات وبدأ يدعو بها بصدقٍ هو وزوجه حواء. وهذه الكلمات هي المذكورة في سورة الأعراف: **"قالا رَبَّنا ظَلَمنا أَنفُسَنا وَإِن لَم تَغفِر لَنا وَتَرحَمنا لَنَكونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ"**. تاب آدم فقبل الله تعالى توبته، وغفَر ذنبه، فهو سبحانه كثير التوبة على عباده رحيمٌ بهم.

وهنا نعلم أنّ سابقَ العناية لا يؤثّر فيه حدوث الجناية. فعصيان آدم أخرجه من دار الكرامة لكن لم يُخرجه من دائرة الوَلاية، ولم يسلبه رتبة الخلافة، بل أجزل الله له في العطية فقال: **"ثُمَّ اجتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيهِ وَهَدى"**. وكما قال الشاعر: **"وإذا الحبيبُ أتى بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنُه بألفِ شفيع."**

وهكذا كانت حكمة الله تعالى في خلق آدم: عاشَ في الجنّة لزمن، وأُخرج منها بذنب، وأُنزل إلى الأرض لحكمة لتَعمر الدنيا به وبذرّيته، ولتتحقق الخلافةُ لله تعالى في أرضه، ويكون البشر مع الشيطان بعضهم لبعض عدوّ، فيحصل الصّراع وتقوم سنّة التدافع بين الحقّ والباطل. ولهم جميعا في الأرض مستقرٌّ ومتاعٌ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)

كرّر الله تعالى الأمر بالهبوط من الجنة للتأكيد، وانقسمت ذرّية آدم في الأرض على قسمين: قسم المؤمنين بالله تعالى: وهؤلاء هم المستحقّون للخلافة في الأرض الصّالحون لعمارتها وإدارتها، لأنهم حقّقوا أركان الخلافة ومتطلباتها من الإيمان بالله، والاستجابة لأمر الله، وتطبيق الشرائع التي أنزلها الله تعالى على عباده بواسطة أنبيائه ورسله، فكان جزاؤهم: أنّهم بعد انقضاء آجالهم في الدّنيا سيعودون في الآخرة إلى الجنة، إلى موطنهم الأصلي وهم آمنون، لا ينالهم خوفٌ ولا حُزنٌ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)

والقسم الثاني: هم الكافرون وهؤلاء لم يحقّقوا متطلبات الخلافة في الأرض فكفروا بالله، وأنكروا دعوة الأنبياء، وكذّبوا ما أنزله الله تعالى عليهم من الآيات. فكان جزاؤهم: حرمانهم من الجنة، من موطنهم الأصلي، لأنهم أطاعوا الشيطان، الذي كان سببا في إخراج أبيهم من الجنّة، ومصيرهم الخلود في النّار والعياذ بالله!

وهكذا، اقتضت الحكمة الإلهية أن يعيش الإنسان على الأرض لعمارة هذا الكوكب بمنهج الله تعالى وشرعه، وإظهار مزيّته في جهاد النفس والهوى والشيطان.

بعد أن عرضت سورة البقرة التجربة التمهيديّة لآدم في الاستخلاف، ستأتي الآيات الآن لتعرض تجربةً أخرى لقومٍ استخلفهم الله تعالى في الأرض، لكنّهم فشلوا في مهمّتهم. قومٌ فضّلهم الله تعالى على أهلِ زمانهم، لكنّهم فشلوا في تحمّل مسؤولية الخلافة، فنقضوا الميثاق، وحرفوا الكتاب، وجادلوا الأنبياء، وعبدوا العجل، واشتغلوا بالسّحر، ومارسوا الاحتيال، وتململوا من الأوامر، ولم يصبروا لا على تكليفٍ ولا على ابتلاءٍ ولا حتى على نوع الطعام.

وفي عرض تجربتهم، رسالةٌ لأمة محمد ﷺ، رسالة توجيهٍ وتنبيهٍ. توجيهٌ للتمسّك بأسس الخلافة الحقّة التي خُلقنا لأجلها، وتحذيرٌ من أن نحذُوَ حذوهم فنُستبعد كما استُبعدوا. فإن جعلنا الله تعالى اليوم خير أمّة، فقد كانوا هُم ذات يوم خير أمة، وفُضّلوا قبلنا ولنا أن نعتبر!

الدرس الخامس
٥٧ ٤٠

بعد عرض تجربة آدم في استخلاف الأرض، انتقلت سورة البقرة لعرض تجربة بني إسرائيل في الخلافة، الذين أنعم الله عليهم بنعمٍ عظيمة وفضّلهم على العالمين. استمع إلى القرآن وهو يعرض تجربتهم بأسلوبه البليغ!

يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)

بعد الحديث عن قصة الخلق وتجربة استخلاف آدم، اتجه الكلام في سورة البقرة إلى الحديث عن تجربة بني إسرائيل مع الخلافة في الأرض. وبنو إسرائيل هم أولاد النبي يعقوب -عليه السلام-، والخطاب في الآية لفِرق بني إسرائيل التي كانت بالمدينة وما حولها وخاصةً اليهود، ويدخل فيهم من أتى بعدهم. وفي إضافتهم إلى أبيهم "إسرائيل" تشريفٌ لهم وتكريمٌ، لحثّهم على امتثال أوامر الله سبحانه وتعالى واجتناب نواهيه. فكأنه يقال لهم: يا أولاد العبدِ الصالح والنبيِّ الكريم! كونوا مثل أبيكم في الطاعة والعبادة!

وبنو إسرائيل، الله تعالى أوصاهم في هذه الآيات بعشر وصايا.

الوصيّة الأولى: يا أولاد النبيِّ الصَّالح يعقوب! اذكروا ما أنعمتُ به عليكم وعلى آبائكم من نعمٍ لا تعدُّ ولا تحصى! اذكروها واشكروها! وهذه النّعم ستأتي تفصيلًا بعد قليل.

الوصيّة الثانية: أدُّوا ما عاهدتموني عليه من الإيمان والعمل الصّالح! فإن فعلتم ذلك، أوفيتُ لكم بما عاهدتكم عليه من الحياة الطيبة في الدنيا والجزاء الحسن في الآخرة.

الوصيّة الثالثة: إيّاي فاخشَوني وخافوني دون غيري! فأنا أحقّ بالرّهبة والخوف.

وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)

الوصيّة الرابعة: آمنوا بالقرآن الذي أنزلتُه على محمد ﷺ! فهو مصدِّقٌ لما معكم من التوراة، في أمور التوحيد والنبوة، وفيه وصف النبي ﷺ، ولا تكونوا أوّل النّاس كفرًا! فحقّكم أن تكونوا أول الناس إيمانًا، لأن عندكم في التوراة دليلُ صدقه.

الوصيّة الخامسة: لا تبيعوا آيات الله الواضحة، الدالةِ على صدق محمد ﷺ، بثمن دنيويٍّ بخس من أجل رئاسةٍ أو مالٍ أو هوى!

ثمّ أكّد على الوصيّة الثالثة، بتقوى الله تعالى ومخافته.

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)

الوصيّة السادسة: لا تخلطوا الحقّ المنزل من عند الله بالأكاذيب التي تخترعونها من عند أنفسكم! ولا تكتموا الحقَّ الذي جاء في كتبكم، حول وصف محمد ﷺ، الذي هو حقٌّ، وأنتم تعلمون! ومن هنا نفهم أنّ نسخة التوراة التي كانت موجودةً أيام النبي ﷺ كان فيها حقٌّ وباطل، وأنهم غيّروا وبدّلوا فيها، وكانوا يعرفون ما هو حقٌّ وما هو محرّف.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

الوصيّة السابعة والثامنة: أدُّوا الصّلاة الواجبة عليكم! وأخرجوا الزكاة المفروضة! وصلّوا مع المصلّين بالجماعة وفي زمرة أصحاب النبي ﷺ!

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)

الوصيّة التاسعة: قبيحٌ أن تدعوا الناس إلى الإيمان وفعل الخير، وتُعرضوا أنتم، فلا تأمروا أنفسكم بذلك! وأنتم تقرؤون التوراة عالِمين بما فيها من الأمر باتباع دين الله وتصديق رسله، أفلا تنتفعون بعقولكم؟!

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)

ثم بيّن الله تعالى لهم طريق التغلّب على الأهواء لشهوات، فكانت

الوصيّة العاشرة والأخيرة: استعينوا على أنفسكم الأمارةِ بالسُّوء بأمرين: الصبرِ والصلاة. فيهما تطهيرٌ للقلوب وتزكيةٌ للأرواح وتهذيبٌ للنّفوس، لكنّ الصلاة شاقةٌ وثقيلةٌ على النفوس الأمارة بالسوء، إلا على الخاضعين لربّهم، الذين عمرت قلوبهم بالإيمان، فصارت قرّة أعينهم في الصّلاة.

الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)

الخاشعون لله تعالى يؤمنون بيقينٍ جازم، أنهم سيلاقون الله تعالى يوم القيامة، وأنّ مرجعهم إليه، وهذا الذي خفّف عليهم أداء العبادات، وزجرهم عن فعل السيئات.

يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)

يا بني إسرائيل! اذكروا نِعَم الله عليكم، الدِّينيةِ والدنيوية! واذكروا أنه فضّلكم على أهل زمانكم المعاصرين لكم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعلكم سادةً وملوكًا!

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)

يا بني إسرائيل! خافوا ذلك اليوم الرهيب! الذي لا تغني فيه نفسٌ عن نفس شيئا، ولا تُقْبَلُ فيه شفاعة أحدٍ لكافرٍ أبدا، ولا تُقبل منها فديةٌ إطلاقا، ولا ناصرَ ولا عاصمَ من عذاب الله. فإذن لا ينفع شافعٌ ولا فداءٌ ولا ناصرٌ، فلماذا لا تعملون لذلك اليوم الرهيب؟

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩)

تقدّم معنا تذكير الله تعالى لبني إسرائيل بنعمه عليهم إجمالاً، والآن يأتي بيان تلك النِّعم على سبيل التفصيل، فعدّد الله عشر نِعَم أفاضها عليهم في تاريخهم الطّويل. وكلُّ هذه النعم تَستدعي شكر المنعم - جل وعلا- لا كفرانه وعصيانه. وهذه النّعم تلقّاها اليهود على عهد موسى - عليه السلام - إلا أنّ الخطاب في الآيات جاء موجها إلى اليهود المعاصرين في عهد النبي ﷺ، لأنّهم أحفاد أولئك، وهم امتدادٌ لليهود السّابقين.

فما هي تلك النِّعم العشر؟

النعمة الأولى: أنّ الله أنقذكم يا بني إسرائيل! من بطش آل فرعون، الذين كانوا يُذيقونكم أصناف العذاب؛ ماذا كانوا يفعلون؟ كانوا يقتلون الذكور من الأولاد ذبحا، حتَّى لا يكون لبني إسرائيل بقاء، ويتركون البناتِ أحياءً من أجل الخدمة، وذلك إمعانا في إذلالكم وإهانتكم، فأنجاكم الله يا بني إسرائيل! من هذا البطش والعذاب والإبادةِ الجماعيّة. وفي هذا اختبارٌ عظيمٌ لكم من ربكم؛ ليَعلم من يَشكرُ منكم ومن لا يَشكر.

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)

النعمة الثانية: أنّ الله شقّ لكم البحر فجعله طريقا يابسا تعبرونه سالمين، فأنجاكم الله تعالى من الغرق، بينما أغرق عدوّكم فرعون وأتباعه، أمام أعينكم وأنتم تشاهدون ذلك، فكان آيةً باهرةً من آيات الله تعالى.

وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)

واذكروا يا بني إسرائيل! مواعدَتَنا موسى -عليه السلام- بعد أربعينَ ليلةٍ من هلاك فرعون لتنزل عليه التوراة: فذهب موسى لميقات ربّه واستخلف أخاه هارون عليهم، ولكن خلال هذه المدة قام رجلٌ بينهم يُدعى السّامري، وكان رجلًا منافقا، فصنع لهم من حُليّهم تمثالًا على صورة عِجل ودعا السّامريُّ بني إسرائيل لعبادته، فاتخذوه إلهًا وعبدوه. وهذا من بلادتهم، وسخافة عقولهم. عبدوا تمثالًا وظنّوه إله الأرض والسماوات، وبهذا وقعوا في الظلم العظيم وهو الشرك بالله.

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)

النعمة الثالثة: أنّ الله تعالى عفا عنكم جريمةَ عبادتكم للعجل، لعلكم تشكرون نعمة الله عليكم بعد ذلك.

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)

النعمة الرّابعة: أنّ الله أنزل التوراة على موسى -عليه السلام- فرقانا لكم يا بني إسرائيل! بين الحقّ وبين الباطل، وتمييزا بين الهدى والضّلال لعلكم تهتدون بها إلى الحقّ.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)

النعمة الخامسة: أنّ الله وفّقكم للتوبة من عبادة العجل، حيث قال موسى -عليه السلام-: "إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل" إلها تعبدونه، وأيُّ ظلم أعظم من الإشراك بالله؟ فتوبوا إلى خالقكم! وطريقة التّوبة: أن تقتلوا أنفسَكم. وليس المعنى أنّ الرّجلَ يقتل نفسه، بل كلُّ واحد يقتل الآخر. والتوبة على هذا النحو، خيرٌ لكم من التمادي في الكفر. وبهذا صار كلُّ واحدٍ منهم يقتُل الآخر.

ذكر المفسّرون أنّه لما رأى موسى -عليه السلام- أنهم سينتهون لأنه إذا قتَل بعضهم بعضا فلن يبقى أحدٌ، ابتهل موسى إلى الله سبحانه وتعالى أن يرفع عنهم الإصر؛ فأمروا بالكفّ وتاب الله عليهم، إذ قبل الله توبة من قُتِل منهم ومن لم يُقتَل. ولا غرابة في ذلك فالله تعالى هو التواب الرحيم بعباده.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥)

بيّن الله تعالى في هذه الآية الكريمة لونا من ألوان طغيان بني إسرائيل: لما رجع موسى من ميقات الله وأنزل الله تعالى عليه التوراة، وجاء بها إلى بني إسرائيل، قالوا لموسى مقالتهم الشّنيعة: هذه ليست من الله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي لن نصدّق لك بأنّ ما نسمعُه هو كلامُ الله، حتى نرى الله علانية. وهذه المقالةُ القبيحة غايةٌ في الظلم والجرأة على الله، فكانت عقوبتكم يا بني إسرائيل!: أن الله أرسل عليكم نارا من السماء فأحرقتكم، وبعضُكم ينظر إلى بعضٍ كيف يموت.

ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)

النعمة السادسة: أنّه بعد أن أخذتكم الصّاعقة أحييناكم بعد موتكم، لعلكم تشكرون الله على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت.

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

لما امتنع بنو إسرائيل من دخولِ مدينة الجبّارين وقتالِهم وقالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ عوقبوا على ذلك بالضَّياع أربعين سنة، يَتيهون في الأرض وما كان عندهم ماءٌ ولا مأوى، ولكن الله تعالى لَطَف بكم يا بني إسرائيل! ورَحِمكم فظلَّل عليكم الغمام، أي جعله ظلًّا لكم يحميكم من حرّ الشّمس، وهذه هي *النّعمة السّابعة*. والغمام هو: السَّحاب الرقيق الأبيض، وقيل: هو السَّحاب البارد الذي يكون به الجو باردا.

والنِّعمة الثامنة: خلال فترة التِّيه، أنعم الله عليكم يا بني إسرائيل! بأنواعٍ من الطعام والشراب، من غير كدٍّ ولا تعبٍ: أنزل الله عليكم ﴿ٱلْمَنَّ﴾ وهو شَرابٌ حلوٌ مثل العسل تمزجونه بالماء ثم تشرَبونه، وقيل: المنُّ هو اسمٌ جامعٌ لكل رزقٍ حسنٍ، ممّا يمنُّ الله تعالى به على عباده بدون تعبٍ ولا جهدٍ منهم. فيخرج من شقوق الأرض بلا بذرٍ ولا سقي، مثل الفطر والكمأة. وأنعم الله عليكم يا بني إسرائيل! بـ﴿ٱلسَّلْوَىٰ﴾ و(السّلوى): طائرٌ صغيرٌ طيّب اللحم، يشبه طائر السُّمَانى، كرامةً من الله لكم. وقال الله لكم: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي كلوا من لذائذ نعم الله! واشكروا الله تعالى على نِعمه! لكنّ بني إسرائيل لم يفعلوا شيئا مما أمروا به.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: عصيانُ بني إسرائيل وكفرُهم بهذه النعم، لا يضيرنا شيئا وما ظلمونا به، ولكنهم ضرُّوا أنفسهم وظلموها بتعريضها للعقاب، لأنَّ وبالَ العصيان راجعٌ عليهم. وهذه حقيقة. فالله تعالى لا تنفعه طاعة مطيع ولا تضره معصية عاصٍ، بل نفسَه ينفع المطيع، وحظَّها يبخس العاصي.

اللهم اجعلنا من الطائعين!.

الدرس السادس
٦٦_٥٨

تنوّعت آيات سورة البقرة في مخاطبة بني إسرائيل، فتارة دعتهم بالملاطفة، وتارة بالتخويف، وأخرى بإقامة الحجّة والتوبيخ، وتارةً بتذكيرهم بنعم الله عليهم وعلى آبائهم استمالةً لقلوبهم نحو الإيمان.

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)

لا تزال الآيات تعدد نعم الله على بني إسرائيل. ذكر المفسرون أنّه بعد انتهاء مدة التِّيه (أربعين سنة)، وكان قد مات كلٌّ من موسى وهارونَ -عليهما السلام-، نشأ جيلٌ جديدٌ بقيادة يُوشع بن نون - عليه السلام-، وغزا بهم العمالقة، وفتح الله تعالى عليهم بلاد القدس. وفي الآية ذِكرُ

النعمة التاسعة على بني إسرائيل: "واذكروا يا بني إسرائيل! من نعم الله عليكم بعد خروجكم من التِّيه، حين قلنا لكم: ادخلوا بيت المقدس! وكلوا مما فيه من الطيّبات! من أي مكانٍ شئتم أكلًا هنيئًا واسعًا، وادخلوا باب بيت المقدس! ساجدين لله تعالى، خاضعين له، شكرًا على خلاصكم من التِّيه. واسألوا الله تعالى قائلين: 'يا ربنا حُطَّ عنا ذنوبنا'، فنستجيب لكم، ونمحُوَ عنكم ذنوبكم، وسنزيد الذين أحسنوا في أعمالهم ثوابًا على إحسانهم."

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)

كيف تعامل بنو إسرائيل مع نعمة دخول بيت المقدس والأكلِ من الطيّبات؟ الظَّلَمَةُ منهم بدّلوا العمل وحرّفوا القول: أما تبديل العمل، فبَدَلَ الدخولِ ساجدين لله تعالى، دخلوا يزحفون على أدبارهم. وأمّا تحريف القول، فبدل أن يقولوا: "حُطّ عنّا ذنوبنا"، استبدلوا كلمة "حِطّة" بكلمة "حِنطة"، وأخذوا يقولون: "حبّةٌ في حِنطة" على سبيل السُّخرية والاستهانةِ بأمر الله، فكان الجزاء: أن الله تعالى أنزل على الظالمين منهم عذابًا من السماء، بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله.

وهذا الحادث في تاريخ بني إسرائيل وقع، كما ذكرنا، بعد الفترة التي يدور عنها الحديث هنا، وهي فترة موسى -عليه السّلام-. ذلك أنَّ تاريخَهم كلّه يعتبر وحدة واحدة، قديمُهُ كحديثِه، ووسطُهُ كطَرفَيه، كله مخالفةٌ وتمردٌ وانحرافٌ وعصيان.

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)

النعمة العاشرة من نعم الله عليكم يا بني إسرائيل: حين كنتم في التِّيه أصابكم عطشٌ شديد حتى كدتم أن تهلكوا، فدعا موسى ربه طالبًا السقيا لكم، فأوحى الله تعالى إليه أن يضربَ بعصاه الحجر، فتفجَّرت منه عيونُ الماء، فكانت معجزةً ظاهرة: تفجّرت عيون الماء بعدد قبائلكم (اثنتي عشرة قبيلة)، فجرى لكل قبيلةٍ جدولٌ مائيٌّ خاص بها، وعَلِمت كل قبيلة مكان شربها الخاصّ حتَّى لا يقع بينكم نزاعٌ. وقيل لكم: "كلوا من المنّ والسلوى! واشربوا من هذا الماء العذب! من غير كدٍّ منكم ولا تعب، بل هو من إنعام الله تعالى وفضله عليكم، ولا تطغوا في الأرض بالبغي والفساد!" وبهذا انتهى تعداد النعم التي أنعم الله تعالى بها على بني إسرائيل.

وفيما يلي من الآيات سيأتي ذكر بعض قبائح وخطايا بني إسرائيل:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)

واذكروا يا بني إسرائيل! حين كنتم في الصحراء تأكلون ممّا أنعم الله تعالى عليكم من المن والسلوى، فقلتم لنبيكم موسى عليه السلام: "لن نصبر على نوعٍ واحدٍ من الطعام (المنّ والسلوى)، فادع الله أن يرزقنا طعامًا آخر! فقد سئمنا المنّ والسلوى، ونريد ما تخرجُه الأرض من البقول والخضروات والحبوب وَالْقِثَّاء (يشبه الخيار لكنه أكبر)، والثُّوم والعدس والبصل." فقال لكم موسى منكرًا عليكم: "ويحكم! أتستبدلون الخسيس بالنفيس؟! وتفضّلون البصَل والبقل والثوم على المنّ والسلوى؟! وهو خيرٌ وأكرم. إن كنتم مصرّين على طلب الأدنى عوضًا عما هو خير لكم، فادخلوا أيَّ مصرٍ من الأمصار أو أيَّ أرضٍ من الأراضي الزراعية! لتجدوا فيه مثلَ هذه الأشياء." وقد لزمهم الذل والهوان، وضُرب عليهم الصَّغار والخزي، ورجعوا بسَخَطٍ من الله، وذلك بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة والخطايا العديدة، منها: كفرُهم بآيات الله جحودًا واستكبارًا، وقتلُهم الأنبياء والرّسل ظلمًا وعدوانًا، وتمرُّدهم على أحكام الله تعالى.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)

لقد أنصف القرآن الكريم أهل الكتاب، ففي هذه الآية يخبرنا الله تعالى أنّ كلّ من حقّق الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وعمل صالحًا فله من الله تعالى الأجر والمثوبة، سواء أكان من أتباع النبي محمد ﷺ أو من الذين آمنوا بذلك مِنَ الأمم السابقة (قبل بعثة النبي محمد ﷺ) من يهودٍ ونصارى وصابئة. الصابئة: طائفةٌ من أتباع بعض الأنبياء، وأنّهم لا يخافون ولا يحزنون في الدّنيا ولا في الآخرة حين يخاف الكفار من العذاب، ويحزن المقصرون على تضييع الأعمار وتفويت الثواب.

ولي مع تفسير هذه الآية وقفات: لأنّ البعض جعل من هذه الآية دليلًا على صحة الأديان المحرّفة، وهذا فهمٌ خاطئ سقيم. أولًا: الأنبياء والرسل السابقون كانت تنزل عليهم الكتب والشرائ□□ وهي صحيحةٌ معتبرةٌ في وقتها، فلما بعث الله تعالى محمدًا ﷺ ختم الله به الرسالة: وبنزول القرآن نسخ الله تعالى به بقيّة الشرائع، فلا يصح لأحدٍ بعد نزول القرآن وبعثة النبي العدنان أن يدين إلا بدين الإسلام. قال تعالى: ﴿وَمَن يَبتَغِ غَيرَ الإِسلامِ دِينًا فَلَن يُقبَلَ مِنهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرينَ﴾. ثانيًا: هل أهل الكتاب هم فعلًا أهل كتاب؟ بمعنى: هل هم متمسّكون بكتابهم؟ لو قيل: نعم، سأقول: إن كانوا هم حقًّا مؤمنين بكتبهم، فيجب عليهم الإيمان بالنبي ﷺ لأن كتبهم بشّرت به، فإن كفروا به فهم في هذه الحال كفروا بكتبهم وعصوا نبيّهم قبل أن يكفروا بدين الإسلام. ولذلك قال الله تعالى عن بني اسرائيل: ﴿أَفَتُؤمِنونَ بِبَعضِ الكِتابِ وَتَكفُرونَ بِبَعضٍ﴾، فالله تعالى نسبهم إلى الكفر حتى في كتبهم، والله المستعان.

ثالثًا: مصطلح أهل الكتاب أو اليهود والنصارى جاء في النّصوص الشّرعية على عدة أقسام:

- القسم الأول: اليهود والنصارى الذين كانوا في عهد أنبيائهم، واتّبعوا أنبياءهم وما أنزل عليهم، فهؤلاء مؤمنون مسلمون.

- القسم الثاني: الذين أدركوا النبي محمدًا ﷺ وآمنوا به، فهؤلاء أيضًا مسلمون مؤمنون.

- القسم الثالث: الذين أدركوا النبي محمدًا ﷺ ولم يؤمنوا به، فهؤلاء هم اختاروا الكفر به.

فإذا علمتَ هذا التفصيل والتأصيل، فهمتَ معنى الآية التي معنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنوا وَالَّذِينَ هادوا وَالنَّصارى وَالصّابِئينَ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالِحا فَلَهُم أَجرُهُم عِندَ رَبِّهِم وَلا خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنونَ﴾. فالمقصود باليهود والنصارى هم من القسم الأول. فيكون معنى الآية: إنَّ الذين آمنوا برسالة محمدٍ ﷺ، والذين هادُوا (الذين اتبعُوا موسى -عليه السلام- وهم اليهود الأولون الذين كانوا على شريعته قبل التحريف والتبديل)، والنصارى الأولون (الذين اتبَعوا المسيحَ عيسى -عليه السلام- وهم الذين كانوا على شريعته قبل التحريف والتبديل)، والصابئين (وهم الصابئون الحنفاء الأولون الذين كانوا على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق قبل التبديل والتحريف). فهؤلاء هم الذين مدَحهُم الله تعالى. أما أهلُ الكتاب بعد التحريف والتبديل، وبعد تركهم للإيمان بالنبي محمد ﷺ وبالقرآن، فهم غير داخلين في هذه الآية، وهم الذين اختاروا الكفر.

وهذه نقطة مهمة: الكفر ليس تهمة، الكفر اختيار، لذلك سأل الله تعالى أهل الكتاب: ﴿يَا أَهلَ الكِتابِ لِمَ تَكفُرونَ بِآياتِ اللَّهِ﴾. هذا سؤال بمعنى: لماذا اخترتم الكفر؟ فأنتم يا أهل الكتاب، أنتم الذين اخترتم الكفر بالنبي محمد ﷺ وبالقرآن، فنحن لا نتّهمكم، بل نحن نصفكم، ونذكر اختياركم.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣)

واذكروا يا بني إسرائيل! حين أخذنا منكم العهد والميثاق بأن تؤمنوا بالتوراة وتعملوا بما فيها، حتى رفعنا جبل الطور فوقكم فأصبح كالظلة تخويفًا لكم وتحذيرًا من ترك العمل بالعهد والميثاق، وقلنا لكم: ﴿خُذواْ مَا آتَينَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ (أي: اعملوا بما في التوراة بجدٍّ وعزيمة! واحفظوه! ولا تغفلوا عنه!) رجاء أن تكونوا من فريق المتّقين.

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)

وبعد أن أخذ الله عليكم العهد والميثاق، يا بني إسرائيل! إذ بكم تعرضون عنه، ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه بكم بأن تجاوز عنكم، لكنتم من الخاسرين لسعادة الدنيا والآخرة بسبب ذلك الإعراض والعصيان.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)

ولما ذكّر الله تعالى بني إسرائيل بالنّعم العشرة السابقة، أردف ذلك ببيان ما حلّ بهم من عقوبة جزاء تمرّدهم وتحايلهم على أوامر الله تعالى، ومن ذلك: قصة أصحاب السّبت، حيث أنّ إحدى قُرى بني إسرائيل كانت بقرب البحر، وقد حرّم الله تعالى على أهلها صيد السّمك يوم السّبت، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السّبت كثيرةً طافيةً على وجه البحر، وإذا ذهب يوم السبت فلا يرون من السّمك شيئًا. وكان النّهي عن الصّيد يوم السّبت ابتلاءًا وامتحانًا لأهل تلك القرية، فماذا فعلوا؟ بدل الاستجابة لأمر الله تعالى، احتالوا على هذا النّهي بحيلةٍ مفضوحةٍ، وهي أنّهم كانوا يحفرون للسّمك حفرًا، وينصبون لها الشباك قبل يوم السّبت، فإذا جاء يوم السبت ووقعت الأسماك في تلك الحفر والشّباك لم يأخذوها، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها. فيا بني إسرائيل! لقد عرفتم ما فعلناه بمن عصوا أمرنا من آبائكم حين خالفوا واصطادوا السّمك يوم السبت، وقد نهيناهم عن ذلك، فكانت عقوبتهم أن مسخناهم قردةً حقيرين ذليلين، لأنهم نزلوا إلى مرتبة الحيوان.

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)

فجعلنا عقوبةَ قريةِ أصحاب السّبت إذ نُكّل بهم تنكيلًا عبرةً في وقتها لما جاورها من القرى، وعبرةً لمن يأتي بعدها حتّى لا يَعمل أحدٌ مثلَ عملها، فيستحق مثل عقوبتها، وجعلناها تذكرة نافعةً للمتقين. فأولى بكم يا بني إسرائيل! أن تتعظوا بما حلّ بأسلافكم لمّا خالفوا أوامر الله تعالى! نعوذ بالله من الفسوق والعصيان!

الدرس السابع
٦٧ـ٧٤

بعد الحديث المطوّل عن بني إسرائيل، ساقت سورة البقرة قصةً من أعجب قصص بني إسرائيل: إنّها قصة البقرة. استمع إلى القرآن وهو يحكي هذه القصة بأسلوبه البليغ الحكيم!

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)

القرآن الكريم قسّم أحداث قصّة البقرة إلى أربعة فصول. والأصل أن تعرض هذه الفصول مرتّبة: الفصل الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرّابع، لكن العجيب في العرض القرآني للقصّة، أنّ أحداث القصة بدأت من الفصل الثاني، ثمّ الرابع، ثمّ الأول، ثمّ الفصل الثالث، فعُرضت القصّة بصورة فيها تقديمٌ وتأخير، فقُدّم ما كان يتوقّع تأخيره، وأخّر ما كان يتوقّع تقديمه بطريقة إبداعيّة رائعة، تأخذ بمجامع القلوب، وتثير التشويق، وتوجد الغموض، لتصل معنا القصّة مع تصاعد الأحداث إلى مرحلة الصّدمة.

أمّا البداية فكانت عجيبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُم أَن تَذبَحوا بَقَرَةً﴾. تبدأ القصّة من الفصل الثاني، طيّب، لماذا أمر الله بني إسرائيل بأن يذبحوا بقرة؟ حاليا لا نعلم، لكن القرآن ذكر السّبب في الفصل الأول، والذي سيأتي معنا متأخرا، إذن فالقصّة تبدأ بعنصر الغموض لتثير لدى القارئ عنصر التشويق. فدعونا نحافظ على هذه العناصر الإبداعية في سرد أحداث القصّة! ونسردها كما سردها القرآن، بدون حرقٍ لإحداث القصّة!

تبدأ قصّة البقرة ونحن نرى موسى -عليه السّلام- وحوله بنو إسرائيل، يصدر الأمر من الله، لم يقل: أنا آمركم، بل قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأمُرُكُم أَن تَذبَحوا بَقَرَةً﴾ ليكون أعظم وقعا في نفوس بني إسرائيل، وكان الواجب عليهم المبادرة إلى الاستجابة لأمر الله، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض والمماطلة والمجادلة، وقالوا بسفاهةٍ وحماقة: ﴿أَتَتَّخِذُنا هُزُوًا﴾ أي: أتجعلنا يا موسى موضع السخرية؟ قمّة السّفه وسوء الظنّ! هل هذا خطابٌ يليق بنبيّ؟ كلمة مؤذية وعبارةٌ وقحة: نبيٌّ يَنقل لهم أمر الله، وهم يظنون أنه يُلاعبهم وأنه يهزأ بهم. فكيف كان ردّ موسى عليه السلام؟ قال موسى عليه السلام: ﴿أَعوذُ بِاللهِ أَن أَكونَ مِنَ الجاهِلينَ﴾: أبرأ إلى الله من أن أكون من السُّفهاء الجاهلين، الذين ينسبون الكذب إلى الله. ما أبلغ دفاع هذا الدَّاعيةِ عن ذاته! ونفيِ السّفهِ عن نفسه! مؤكدا لبني إسرائيل بأنّه في غاية الجديّة. فلا ينبغي للداعية أن يتساهل أو يتلاعب وهو يبلّغ دين الله.

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨)

وهنا انتقل سياق القصّة إلى الفصل الرابع. إنّ ما أرشدهم إليه موسى -عليه السلام- كان كافيا لحملهم على أن يذبحوا أيَّ بقرة، ولكن بسبب طبيعتهم المعقّدة، أخذوا يجادلون قائلين: يا موسى! اطلب لنا مِن ربك يبيّن لنا صفات هذه البقرة! ولسان حالهم يقول: أنت حيرتنا، فكلامك غير واضح، يحتاج إلى زيادة تفصيل. حدّد لنا عُمرَ هذه البقرة! ولاحظوا إلى سوء الأدب! ﴿ادعُ لَنا رَبَّكَ﴾ فكأنما الله تعالى هو ربُّ موسى وحده، لا ربُّهم كذلك. ومع هذا، فقد صبر موسى عليه السلام على تعنّت قومه، وأجابهم إجابة المربي الحكيم، وأخبرهم بسنّها: هيَ لا مسنةٌ ولا صغيرةٌ، بل وسطٌ بينهما، ثم قال: ﴿فَافعَلوا ما تُؤمَرونَ﴾ أي: اتركوا الإلحاح في السؤال! اتركوا التلكؤ والاعتراض! بل اشرعوا في التنفيذ! لكن هل امتثلوا الأمر؟ الجواب: كلا.

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩)

موسى -عليه السلام- حثّ قومه على الطاعة، ومع ذلك فقد أبوا إلا التنطّع، وانتقلوا إلى سؤالٍ آخر عن لون البقرة، فأجابهم موسى بأنّها بقرةٌ صفراء شديدة الصُّفْرة، وهي في حُسن منظرها تُعجب الناظرين إليها. ومع أنَّ اللون الأصفر الفاقع في البقر نادر، لكنَّ بني إسرائيل لمّا شدَّدوا شدَّد الله عليهم. وإلى هنا المفترض أنّهم عرَفوا وصف البقرة من حيث سنِّها ولونِها، فهل أغنتهم هذه الأوصاف؟ كلا، بل عمدوا إلى سؤالٍ ثالثٍ في مشوارهم مع المماطلة.

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠)

بعد أن عرف بنو إسرائيل سنَّ البقرة ولونها، قالوا لموسى: سَلْ ربك من أجلنا! أن يزيدنا إيضاحا لحال تلك البقرة: ما عملُ هذه البقرةِ وما وظيفتُها؟ فإنّه قد إلتبسَ علينا أيُّها نذبح، وإنّا إن شاء الله بعد هذا البيان منك، لمهتدون إلى تلك البقرة، ومنفذُّون لما تُأمرُنا به.

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)

هذه أوصافٌ إضافيةٌ جديدة للبقرة المطلوبة، بأنها: بقرةٌ نفيسةٌ سائمةٌ، ليست مسخّرةً للعمل، لا لحراثة الأرض ولا لسقاية الزّرع. إضافةً إلى أنّها سليمةٌ من العيوب، ليس فيها لونٌ يخالف لون جلدها، من بياض أو سواد أو غيرهما، بل هي صفراءُ كلها. فلمَّا وجد بنو إسرائيل أنّ كل الصفات للبقرة اكتملت، قالوا لموسى: ﴿الآنَ جِئتَ بِالحَقِّ﴾ أي: الآن بيّنت لنا بيانا شافيا، ونطقتَ بالحقّ. وهي عبارةٌ تشتم منها رائحة سوء الأدب: وكأنّ موسى -عليه السلام- كان يتكلم قبل ذلك بالباطل، وحاشاه!

ذكر المفسّرون: أنّ بني إسرائيل بعد البحث الشديد، وجدوا بقرةً بتلك الأوصاف، وجدوها عند رجلٍ ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أبيعها إلا بملء جلدها ذهبا، فاضطرّوا إلى شرائها بملء جلدها ذهبا. كان الأمر يسيرا فعسّروه، وكان واسعا فضيّقوه، ولذلك قال ابن عباس-رضي الله عنهما-: "لو أنّ القوم ذبحوا أدنى بقرة لأجزأهم، لكنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم". وفي النهاية ذبحوا البقرة، ﴿فَذَبَحوها وَما كادوا يَفعَلونَ﴾ أي ذبحوها بعد أن أوشكوا ألا يذبحوها بسبب الجدال والتعنّت.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢)

هنا الفصل الأول من القصّة، وقد تأخّر ليزيد القصّة تشويقا. فأول القصة هو وقوع جريمة قتلٍ، لأحد أثرياء بني إسرائيل في ظروفٍ غامضة. ذكر المفسرون: أنه كان في بني إسرائيل رجلٌ غني، وله ابن أخٍ فقير، قام فقتل عمّه الغني ليرثه، ثم احتمله ليلًا، فوضعه على باب رجلٍ منهم، ثم أصبح يطلب ثأره، ﴿فَادّارَأتُم فيها﴾ أي: تخاصم بنو إسرائيل وتدافعوا بشأنها، وأصبح كلُّ فريق يَدفع التهمة عن نفسه، ويَنسبها لغيره، حتى كادت تثور الفتنةُ بين بني إسرائيل، فقالوا: لا حاجة إلى أن نتقاتل، لنذهب إلى نبي الله موسى! ويخبرَنا من الذي قتله؟ فذهبوا إليه وسألوه، فقال موسى لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأمُرُكُم أَن تَذبَحوا بَقَرَةً﴾ وهنا تعجّب بنو إسرائيل، ووجه التعجّب: ما هي الصلة بين ذبح البقرة، وبين كشف هوية القاتل؟ ولسان حالهم يقول: نحن جئناك من أجل حلّ قضيّة جنائية، وأنت تطلب منا أن نذبح بقرة. ما علاقة هذا بهذا؟ وجه الاستغراب قد يكون واردا، لكنّ المشكلة لدى بني إسرائيل، تمثّلت في طريقة تلقّيهم لهذا الأمر الإلهي، حتى أساؤوا الظنّ بموسى- عليه السلام- ورأوا أنّ طلبه هذا مريبٌ، وظنّوا أنّه يريد اشغالهم عن قضيتهم الأساسية، وأنَّ موسى بهذا الطلب يَسخر من كبريائهم: ﴿أَتَتَّخِذُنا هُزُوا﴾! بهذه النفسية واجهوا الأمر الإلهي.

وبهذا التقديم والتأخير في فصول القصة، تنكشف أمامَنا الحقائق بصورة أوضح. هذه التقنية في سرد قصّة البقرة، تستخدمها مؤخرا كبريات شركات الإنتاج السينمائي في هوليود وغيرها، وتسمى تقنية "الفلاش باك"، لخلق مزيدٍ من الغموض والتشويق في أحداث القصّة، وقد سبَق القرآن كل هذا بقرون: ﴿وَإِذ قَتَلتُم نَفسا فَادّارَأتُم فيها﴾ هذا الفصل الأول من القصّة، وبعد أن تأخّر في الترتيب، أوجد لدينا عنصر الصّدمة: جعلنا ندرك حجم وقاحة وسفالة هؤلاء في حقّ نبيّهم موسى -عليه السّلام-.

أولًا: القصّة بدأت من بني إسرائيل وليست من موسى. فالأمر بذبح البقرة لم يكن أمرا ابتدائيا من موسى عليه السلام، بل كان نتيجة جريمة ارتكبت من قبل بني إسرائيل.

ثانيا: بنو إسرائيل هم الذين سعوا إلى موسى، ولم يسعَ هو إليهم. فبنو إسرائيل هم الذين طلبوا من موسى عليه السلام، أن يجد لهم الحلّ، فبعد أن وجد لهم الحلّ جادلوه.

ثالثا: اكتشفنا من هذا الفصل الأول، أنّ موسى- عليه السلام- إنّما أراد إنقاذ بني إسرائيل من الاقتتال، عن طريق إيجاد مخرجٍ لهم من ورطتهم، بعد أن تخاصموا وتنازعوا، وكادوا يقتتلون، وتجري بينهم مذبحة. فالنبيُّ الكريمُ الذي أراد أن ينقذهم، إذ بهم يتّهمونه. وهذه الصدمة تجعلك تشعر بمقدار الحسرة والألم الذي وجدها موسى عليه السلام في صدره، عندما قالوا له: ﴿أَتَتَّخِذُنا هُزُوا﴾ فلم يجد موسى من الكلمات التي يدافع بها عن نفسه إلا أن قال: ﴿أَعوذُ بِاللَّهِ أَن أَكونَ مِنَ الجاهِلينَ﴾ بدأوها باتّهام، ثم واصلوا أذيّتهم لموسى عليه السلام بطول الجدال. فلله درّ موسى كم أوذي وصبَر! وقد اتّخذه نبيّنا محمد ﷺ أسوةً له، في صبره على بني إسرائيل، فقد قال ﷺ حين آذاه رجلٌ بكلام: قال: "رحم الله موسى، فقد أوذي بأكثر من هذا فصبَر".

فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)

هذا هو الفصل الثالث من فصول القصّة، إلا أنّه أتى في خاتمة القصّة: فبعد أن أمر موسى بني إسرائيل بذبح البقرة، أخبرهم بأنّ عليهم ضربَ القتيل، ببعض أجزاء تلك البقرة المذبوحة، فبعد أن ذبحوها، ضُرب القتيل فأحياه الله، وأخبر عن قاتله ثم رجع ميتا، في وسط دهشة بني إسرائيل. فكما أحيا الله هذا القتيل أمام أبصاركم، كذلك يحيي الله الموتى ويخرجهم من قبورهم. يا بني إسرائيل! إنّ الله يريكم دلائل قدرته، لعلكم تعقلونها فتؤمنون حقّا بالله تعالى.

وتأخير هذا الفصل من القصّة، له هدفٌ ومغزى: ليبقى إثباتُ قدرة الله تعالى على إحياء الموتى عالقا في الذهن. وهو الدّرس المهم في القصّة، بل هو أحد مقاصد سورة البقرة. والسؤال: بعد هذه المواعظ البليغة والمعجزات الباهرة، هل صلُحت قلوب بني إسرائيل؟

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)

إنّ المعجزات الباهرة والمواعظ البليغة، كفيلةٌ بتليين القلوب الجامدة، لكنّ قلوبكم يا بني إسرائيل! قسَت قسوةً شديدة، فهي كالحجارةِ أو أشدُّ صلابة منها، لا يؤثر فيها وعظٌ ولا تذكير فكأنما خرجت عن دائرة الأحياء، إلى دائرة الجماد، بل نزلت عن درجة الجماد أيضا: فبعض الحجارة تتدفّق منها مياه الأنهار الغزيرة، وبعض الحجارة تتصدّع، فينبع منها الماء، وبعض الحجارة تسقط من أعالي الجبال، رهبةً وخشيةً من الله. الحجارة قد تتأثر بالمؤثرات الخارجية، الحجارة تلين، الحجارة تتصدّع، الحجارة تخشع، لكن قلوبكم يا بني إسرائيل! لا تتأثر بالمؤثرات ولا بالمواعظ. قلوبُكم لا تلين، قلوبكم لا تخشع، قلوبكم لا تتأثر، لأنها صارت أشدُّ قسوةً من الحجارة. وإنّ الله رقيبٌ على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية، وسيجازيكم عليها يوم القيامة

الدرس الثامن
٧٥_٨٦

في سورة البقرة، ذكر الله بعض قبائح بني إسرائيل، كتحريف كلام الله تعالى وادعائهم بأنهم أحباب الله، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، إلى آخر ما هم عليه من الأماني الكاذبة.

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)

قبل أن تواصل الآيات ذكر خطايا بني إسرائيل، ورد هنا تيئيس المسلمين الذين يطمعون في هدايتهم ويحاولون أن يبثوا في قلوبهم الإيمان، بأنه لا مطمع ولا رجاء في أن يؤمن أمثال هؤلاء، فللإيمان طبيعة أخرى واستعداد آخر.

الطبيعة المؤمنة طبيعة سمحة هينة لينة، مفتوحة المنافذ للنور، أما هؤلاء فقد فُطروا على الضلال، وجُبلوا على العناد: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾، أي: هل ترجون يا معشر المؤمنين أن يُسلم اليهود ويدخلوا في دينكم؟ والحال أن طائفة من أحبارهم وعلمائهم كانوا يسمعون كلام الله المنزل عليهم في

التوراة، ثم يحرفونه بتغيير ألفاظه ومعانيه، من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم، وهم يعلمون أنهم يرتكبون جريمة مدركين ذلك عن علم وبصيرة، لا عن خطأ أو نسيان.

ومن نماذج تحريفهم ما روي أن أحبار اليهود خافوا زوال رئاستهم، فعمدوا إلى وصف النبي ﷺ في التوراة: "حسن الوجه، حسن الشعر، أكحل العينين، أبيض، ربعة"، فغيّروها وكتبوا مكانها: "طويل، أزرق العينين، سبط الشعر". فإذا سألهم العامة عن ذلك، قرؤوا عليهم كلامهم المحرف، فيجدونه مخالفًا لما في التوراة فيكذبونه.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦)

هذه الآية تشير إلى ممارسة بعض اليهود للنفاق: إن اجتمعوا بأصحاب النبي ﷺ اعترفوا لهم بصدق النبي محمد ﷺ وصحة رسالته، وهذا ما تشهد له التوراة. لكن إذا انفرد واختلى بعضهم ببعض، أخذوا يتلاومون ويعاتبون بعضهم بعضًا بسبب هذه الاعترافات، بدعوى أن المسلمين سيقيمون بها الحجة عليهم عند الله يوم القيامة. ويقول بعضهم لبعض: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي: أليست لكم عقول تمنعكم من الاعتراف للمسلمين بصدق نبوة محمد ﷺ حتى لا تكون حجة عليكم يوم القيامة؟ ويا للسخرية! حين يقول بعضهم لبعض: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، عن أي عقل أو تعقل تتحدثون؟!

فاسمع كيف كان رد الله تعالى عليهم في الآية التالية!

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)

ما هذا الجهل؟ كيف فسد ذوق القوم وساء فهمهم حتى اعتقدوا أن ما يخفونه يمكن إخفاؤه على الله تعالى؟ ألا يعلم هؤلاء اليهود أن الله تعالى يعلم حقيقة ما يخفونه من كفر وحقد، وما يظهرونه من إيمان وود؟ فكيف يقولون ذلك وهم يزعمون الإيمان؟ هذا حال أحبارهم وعلمائهم، فكيف حال عوامهم الذين قلّدوهم؟

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)

وفي اليهود طائفة من العوام، ليسوا من أهل العلم، لا يمكنهم الاطلاع على ما في التوراة بأنفسهم، فلا يعرفون من دينهم إلا الأكاذيب التي سمعوها، والأماني الخادعة التي منّاهم بها أحبارهم، من أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الجنة خالصة لهم، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، إلى غير ذلك من الأماني الفارغة. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، أي: وما هم على يقين ثابت من أمر دينهم، بل هم فقط مقلدون لآبائهم وأحبارهم تقليد أهل العمى.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)

إحدى خطايا أولئك الأحبار أنهم حرّفوا التوراة، وكتبوا تلك الآيات المحرفة بأيديهم، ثم يقولون كذبًا لأتباعهم الأميين: هذا من نصوص التوراة. مع أنهم كتبوها بأيديهم، ونسبوها إلى الله كذبًا وزورًا. وسبب تحريفهم للدين: لينالوا به عرض الدنيا وحطامها الفاني. هؤلاء المحرفون لدين الله، هددهم الله تعالى بـ "الويل" في الآية ثلاث مرات: "فويلٌ"، "فويلٌ"، "وويلٌ" لثلاثة أسباب: "فويلٌ" لهم لأنهم حرّفوا كلام الله، "فويلٌ" لهم لأنهم ضلّلوا العوام، "وويلٌ" لهم لأنهم أخذوا مقابل هذا التحريف ثمناً دنيوياً بخساً تافهاً من مال أو رئاسة أو جاه. والويل هو الهلاك والعذاب والدمار الذي ينتظرهم في الآخرة.

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠)

ومن افتراءات اليهود أنهم قالوا كذبًا وزورًا: لن ندخل النار إلا أيامًا قليلة معدودة، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يرد عليهم ويقول لهم على سبيل الإنكار والتوبيخ بأن كلامكم هذا مجرد دعوى، فما دليلها؟ ولأي شيء لا تصيبكم النار مهما فعلتم؟ هل أعطاكم الله تعالى الميثاق والعهد بذلك؟ فإذا كان الله تعالى وعدكم بذلك، فالله لا يخلف الميعاد، أم أنكم تكذبون على الله تعالى، فتقولون عليه كذبًا وزورًا ما لا تعلمون؟

بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)

هنا يأتي الجواب القاطع في دعوى اليهود عندما زعموا أنهم لن يدخلوا النار إلا أيامًا معدودة: لا، ليس الأمر كما يتوهمون؛ فإن الله قد سنَّ نظامًا عامًا شاملاً لكل الخلائق من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو: أن كل من كسب سيئة الكفر وغمرته من جميع الجوانب، فسيجازيهم الله تعالى بدخول النار ماكثين فيها أبدًا. وأما المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فهؤلاء ثوابهم عند الله: دخول الجنة ماكثين فيها أبدًا.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)

فمن مقتضيات الإيمان أن ينبثق من القلب في صورة عمل صالح، وإلا فما قيمة الإيمان بلا أعمال؟ وهذا أهم درس علينا تعلمه حتى لا نضل كغيرنا من الأمم السابقة. فالإيمان والإسلام عقيدة وشريعة، وعبادة وتعامل، وآداب وأخلاق. أما من يدعون الإيمان والإسلام وليس لهم رصيد من العمل، فهؤلاء ليس لهم من الإيمان شيء، وليس لهم من ثواب الله شيء، وليس لهم من عذاب الله واقٍ، ولو تعلقوا بالأماني كأماني اليهود. اللهم ارزقنا الإيمان والعمل الصالح! آمين.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣)

يتكرر الكلام عن الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل، وقد تضمن عشرة بنود، فتنكروا لها وأنكروها. فاذكروا يا بني إسرائيل! العهد المؤكد الذي أخذناه عليكم في التوراة بأن تعبدوا الله وحده ولا تعبدوا معه غيره، وأمرناكم بأن تحسنوا إلى الوالدين إحسانًا كاملاً، وأمرناكم بصلة الأقرباء، ودعوناكم إلى رعاية الأيتام، والإحسان إلى المساكين المحتاجين، وأمرناكم أن تقولوا للناس قولاً حسنًا، بخفض الجناح، ولين الجانب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمرناكم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة المفروضة، لكنكم توليتم وأعرضتم عن هذا الميثاق، وتخلى أغلبكم عن هذه الأوامر والوصايا والمواثيق التي تكفل سعادة المجتمع، وتحقق له الحياة الطيبة الهنيئة، إلا قليلاً منكم.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤)

وتذكروا يا بني إسرائيل عهدًا آخر أخذناه عليكم! بأن لا يقتل بعضكم بعضًا، وأن لا يعتدي بعضكم على بعض بالإخراج من الديار، والإجلاء عن الأوطان، ثم اعترفتم وأقررتم بالميثاق، وبوجوب المحافظة عليه، وأنتم تشهدون بلزومه، لكنكم نكثتم به كذلك، كما يأتي تفصيل ذلك في الآية التالية.

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)

العهد المؤكد الذي أخذه الله تعالى عليكم، يا بني إسرائيل في التوراة! من تحريم إراقة دماء بعضكم بعضًا، وتحريم إخراج بعضكم بعضًا من دياركم، مستعينين عليهم بالأعداء ظلمًا وعدوانًا، هذا الميثاق لم تلتزموا به، مع أنه إذا وقع قومكم من اليهود أسرى في أيدي الأعداء، سعيتم في دفع الفدية لتخليصهم من أسرهم، فكيف تؤمنون ببعض ما في التوراة من وجوب فداء الأسرى، وتكفرون ببعض ما في التوراة من صيانة الدماء، ومنع إخراج بعضكم بعضًا من ديارهم؟!

وهذا الفعل المذكور في هذه الآية، مارسه اليهود الذين كانوا في المدينة زمن الوحي، وتوضيح ذلك: أن الأوس والخزرج في الجاهلية كانوا يقتتلون فيما بينهم، وفرق اليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، كل فرقة منهم تحالفت مع فرقة من أهل المدينة: فكان الأوس والخزرج إذا اقتتلوا، تقوم فرقة من اليهود بالقتال مع الخزرج ضد الأوس، وتقوم فرقة أخرى من اليهود بالقتال مع الأوس ضد الخزرج، فيقتل اليهودي اليهودي ويخرجه من دياره، إذا حصل جلاء ونهب. ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان هناك أسرى بين الفريقين، فدى اليهود بعضهم بعضًا.

والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم في التوراة: ألا يقتل بعضهم بعضًا، ألا يخرج بعضهم بعضًا من ديارهم، وإذا وجدوا أسيرًا منهم، وجب عليهم فداؤه. هذه ثلاثة، فاليهود عملوا بالأخير وتركوا الأول والثاني، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك. والذي يعبد الله تعالى بهذه الطريقة فإنه لا يعبد الله، وإنما يعبد هواه: إذا صار الحكم الشرعي يناسبه أخذ به، وإذا كان لا يناسبه، راوغ عنه بأنواع التحريف والتماس الأعذار.

قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وقد وقع ذلك فأذلهم الله وسلط المؤمنين عليهم، وأما في الآخرة فإنه يُرد إلى أشد العذاب، وليس الله بغافل عن أعمالكم، بل هو مطلع عليها وسيجازيكم بها.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)

ثم أخبر الله تعالى عن سبب ذلك العصيان والعدوان، فذكر بأنهم استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة، آثروا المال والجاه والرئاسة، على الجنة وما فيها من نعيم مقيم للمؤمنين: فهم باعوا آخرتهم بدنياهم، وبئس ما باعوا وبئس الثمن! فلا يخفف عنهم العذاب في الآخرة، وليس لهم ناصر ينصرهم يومئذ. نسأل الله السلامة والعافية.

الدرس التاسع
٩٨ـ٨٧

لا تزال آيات سورة البقرة تتحدّث عن بني إسرائيل، في هذه الحلقة سنستعرض موقفهم من الأنبياء، وموقفهم من الكتُب، وموقفهم من الأوامر الإلهية، وموقفهم من الموت والحياة، وموقفهم من الملائكة الكرام.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)

هذه الآية توضّح موقف اليهود من الأنبياء: فلقد منّ الله تعالى على بني إسرائيل بإرسال الرّسل، وإنزال الكتب لهدايتهم إلى الحقّ وإخراجهم من الظلمات إلى النّور. فقد أرسل الله إليهم موسى -عليه السلام- وأعطاه التوراة، وأتبعه الله بكثيرٍ من الرّسل، يتبع بعضهم بعضا مثل: داود وسليمان، وإلياس ويونس، وزكريا، ويحيى- عليهم السلام- وغيرُهم كثير. وكلُّهم كانوا يحكمون بشريعة موسى- عليه السّلام- ثمّ بعث الله تعالى عيسى بنَ مريم، وآتاه المعجزات

الواضحة دليلًا على صدقه كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وقوّاه الله بروح القدس: جبريل- عليه السلام- ثمّ وبّخ الله تعالى بني إسرائيل: أفكلما جاءكم رسولٌ من عند الله، بما لا يوافق أهواءكم، تكبّرتم على الحق، واستعليتم على رسل الله! فطائفةٌ من الرُّسل كذّبتموهم كعيسى - عليه السلام - وطائفةٌ من الرُّسل قتلتموهم كزكريا - عليه السلام –

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)

ذكر الله تعالى حجة اليهود المعاصرين للنبي ﷺ في عدم اتباعهم له، أنّهم يقولون: إنّ قلوبنا مُغَلّفة، عليها أغطية، أي مغطّاة لا تفقه ولا تعي ما تقوله يا محمد! فردّ الله عليهم: ﴿بَل لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفرِهِم﴾ فعدم اتباعهم لمحمد ﷺ، ليس لأن قلوبهم مغلّفة كما يدّعون، بل لأنّ الله تعالى أبعدهم وطرَدَهم من رحمته، بسبب جحودهم وضلالهم. فقليلٌ منهم من يؤمن، أو المعنى: لا يؤمنون إلا بقليلٍ مما أنزل الله، وهو إيمانُهم ببعض الكتاب وكفرُهم بالبعض الآخر، ومثل هذا الإيمان لا ينفع في الآخرة.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)

في الآية موقف اليهود من الكتب السّماوية: اليهود وعندهم التوراة، فيه وصف النبي ﷺ، وبيان زمانه، كانوا يمنّون أنفسهم بالنصر على المشركين، وكانوا يقولون: "اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان، الذي نجد نعته في التوراة" فلما جاءهم القرآن الكريم من عند الله، وهو موافقٌ لما في التوراة عندهم، في الأصول العامة الصحيحة، ووصفُ النبي ﷺ مطابقٌ لوصفه المعروف عندهم يعرفونه حقّ المعرفة، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فماذا كان موقفهم؟ كفروا به وبما أنزل عليه، لأنّه عربيّ ولم يكن منهم. حسدًا من عند أنفسهم، فلعنة الله على الكافرين!

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)

جاء التوبيخ من الله لليهود لأنهم باعوا أنفسهم بثمنٍ بخس: بئس الشيء التافه الذي باع هؤلاء أنفسَهم من أجله، فكفروا بالقرآن الذي أنزله الله حقًّا وهم يعلمون ذلك. كل ذلك بغيا وحسدًا منهم. هل يمارسون الحسد والبغي لأجل أنّ الله تعالى أنزل القرآن الكريم بفضله على محمد ﷺ وقد اصطفاه الله تعالى من بين عباده؟! فعقوبة هؤلاء: أنهم رجعوا بغضبٍ من الله، زيادةً على غضبه السّابق عليهم، أي استحقّوا غضبا على غضب، ولهم عذابٌ شديدٌ يوم القيامة مع الإهانة والإذلال، لأن كفرَهم سببُه: التكبّر والحسد، ككفر إبليس الذي منعه الحسد من السجود لآدم، فقوبلوا بالإهانة والصَّغار.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)

وإذا قيل لهؤلاء اليهود: آمنوا بالقرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ! فيه الحقُّ والهدى، ماذا كان جوابهم؟ قالوا: نحن نؤمن بالتوراة فقط التي أُنزلت على موسى- عليه السلام- ويكفرون بالقرآن الكريم، مع أنّه هو الحقُّ المبين الموافق لما معهم من التوراة. كلامهم هذا مجرد دعوى، ولو كانوا يؤمنون بالتوراة حقا لآمنوا بالقرآن. فقل لهم يا محمد!: إن كنتم حقيقةً تؤمنون بالتوراة، فلم كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل؟ أيُّ إيمانٍ هذا الذي تدّعونه؟ حين تقتلون من يبلّغُكم كلام الله تعالى. فالحقُّ أنّكم كما كفرتم بالقرآن، فقد كفرتم كذلك بالتوراة التي أنزلت عليكم.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢)

يا بني إسرائيل! أليس الله أكرمكم ببعثة موسى- عليه السلام- وقد جاءكم بالحجج الباهرات على صدقه، وفي المقابل ماذا فعلتم؟ لم تَزدكم تلك الآيات إلا توغلًا في الشّرك والوثنية، فعبدتم العجل، بعد ذهاب موسى لميقات ربه وأنتم ظالمون، لإشراككم بالله تعالى، فهو المستحق للعبادة وحده دون سواه.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)

يا بني إسرائيل! اذكروا حين أخذ الله عليكم العهد المؤكد على العمل بالتوراة، ورفع الله فوقكم جبل الطور تخويفًا لكم، وقد قال الله لكم: ﴿خُذوا ما آتَيناكُم بِقُوَّةٍ وَاسمَعوا﴾ أي: خذوا ما أمرناكم به في التوراة بجدٍّ وحزم! واسمعوا لأوامرنا سَماعَ قبولٍ وطاعة! وإلاّ طرحنا عليكم الجبل. فما كان جواب آبائكم إلا أن قالوا: ﴿سَمِعنا وَعَصَينا﴾ أي سمعنا قولك وعصينا أمرك. وفوق هذا، خالط حبُّ العجل قلوبهم، وتغلغل في سويدائها، كتغلغل الشّراب في سائر الجسد. وهذه استعارةٌ مكنيّة توضّح لنا الحال الذي وصل إليها بنو إسرائيل في الشرك بالله. فكأنَّ حبَّهم لعبادة العجل كان مثل الشراب اللذيذ الحلو، خالطت حلاوته الأفواه والأمعاء، فسرى فيها كما يسري الشراب في مسالك البدن. وذلك بسبب كفرهم، والعياذُ بالله! قل لهم يا محمد!: إن كان إيمانكم بالتوراة، يدعوكم إلى هذا، فبئس هذا الشيء الذي يأمركم به إيمانكم، إن كنتم تزعمون الإيمان. المعنى: لستم بمؤمنين، لأن الإيمان لا يأمر بعبادة العجول.

يا أهل القرآن! تأملوا معي! بعد أن سجَّل القرآن على بني إسرائيل أقبح الكبائر، وهو رفعهم العجل إلى مقام الإله المقدّس. لا يزيد القرآن على وصف فعلتهم بـ: الظلم. كلمة واحدة، لكنها كلمةٌ وافيةٌ بمقدار الجريمة، لو فُهمت على وجهها. لم نجد حدة الردّ، ولا الاندفاع في الانتقام، ولا الإقذاع والتشنيع، ولا فجور الخصومة الذي نراه في كلام الناس. تالله! ما أعفَّ هذه الخصومة! وما أعزَّ هذا الجانب! وما أغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين! تالله! إنَّ هذا الكلام لا يصدر عن نفس بشر، بل هو كلام ربّ الأرباب.

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)

من أماني اليهود الكاذبة، اعتقادهم أنّ الجنَّةَ لهم وحدهم، ولا يدخلها إلا اليهود: ﴿وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُودا﴾ فأمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يردّ على دعواهم تلك، فيقولَ لهم: إن كانت الجنة لكم خالصةً، لا يشارككم في نعيمها أحدٌ، كما زعمتم، فاطلبوا الموت وتمنَّوا الموت! إن كنتم صادقين في دعواكم هذه. لأن الموت سيوصلكم إلى الجنّة بسرعةٍ، فتستريحوا من أعباء الدنيا وهمومها، ومن أيقن أنه من أهل الجنة، اشتاق إليها. واسمعوا إلى ردّ القرآن على هذه الكِذبة المفضوحة في الآية التالية!

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥)

المعنى: لن يتمنى أحدٌ من اليهود الموت أبدا، بسبب ما اجترحوه من الكفر بالله، وتكذيبِ رسله، وتحريفِ كتبه، وقتلِ الأبرياء، خصوصًا الأنبياء، والله عالمٌ بظلمهم وإجرامهم، وسيجازيهم على أعمالهم القديمة والحديثة.

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)

تالله يا محمّد! لتجدنّ هؤلاء اليهود أشدَّ الناس حرصا على حياة: أيّ حياة مهما كانت حقيرةً أو ذليلة، بل وأحرص من المشركين أنفسهم الذين لا يؤمنون بالبعث ولا الحساب. ولأنّهم ماديُّون فهم حريصون على الدنيا، يتمنى الواحدُ منهم أن يعيش ألف سنة، في هذه الدّنيا الفانية، ليعلم هؤلاء!أنّه مهما مكث في الدنيا، ومهما طال عمره، فإنّ هذا ليس بمُنجيه من عذاب الله في الآخرة. والله مطّلعٌ على أعمالهم فيجازيهم عليها.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧)

أقبلت اليهودُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فسألوه: يا أبا القاسمِ!إنّه ليس من نبيّ إلا لهُ ملكٌ يأتيهِ بالوحي، فأخبرنا! من صاحبكُ الذي يأتيك بالوحي؟ قال ﷺ: جبريلُ - عليهِ السلامُ- قال اليهود: جبريلُ! ذاك الذي يَنزِلُ بالحربِ والقتالِ والعذابِ! ذاك عدوُّنا! لو قلتَ ميكائِيل، الذي يَنزلُ بالرحمة والنبات والقَطْرِ تابعناك. فأنزل الله عزَّ وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية. إنها الحماقة المضحكة عندما يزعم هؤلاء أنّ الذي يمنعهم من الإيمان بمحمد ﷺ، لأن صاحبَه جبريل، ولو كان ميكائيل لآمنوا. فاسمعوا كيف جاء الردّ! قل لهم يا محمد!: من كان مُعاديا لجبريل، فإنه عدو لله، لأنّه لا موجب لعداوة جبريل الأمين، إلا أنه نزَّل القرآن الكريم على قلبك يا محمّد! بأمر الله تعالى. وهذا الوصفُ يقتضي محبّة جبريل لا عداوة جبريل. ثمّ إنّ هذا القرآن إنّما نزل مصدقا للكتب الإلهية السّابقة، كالتوراة والإنجيل، مع ما فيه من الدَّلالةِ على الخير، والبشارةِ للمؤمنين بما أعدّه الله لهم من النعيم. فيا يهود! كيف تجعلون سبب المحبة سببا للبغض؟ هداكم الله إلى الحقّ! ثمّ، أي قلبٍ هو قلب محمد ﷺ؟ القلب الذي صار وعاءً للقرآن. فجبريل الأمين نزل بهذا القرآن الكريم، على قلب محمد ﷺ. نزل سكينةً وحبا، فملأ كلّ فؤاده، وتلقّاه تلقيا مباشرا، ووعاه وعيا مباشرا، فاكتسى هذا القلب بالوحي الإلهي، وتخلّق بالنصّ القرآني، فأصبح ﷺ قرآنا يمشي على الأرض. فيا يهود! كيف تعادون صاحبَ هذا القلب؟ وكيف تعادونه روحَ القدس الذي نزل بالقرآن على قلب محمد ﷺ؟

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)

يؤكد الله تعالى ما مضى في الآية السابقة: من كان معاديا لله وملائكته ورسله، وكان معاديا على الوجه الأخصّ للملَكين المُقَرّبَيْن: جبريل وميكائيل، فإنَّ الله عدوٌّ للكافرين منكم ومن غيركم، لأنَّ الله تعالى يُبغض من يُعادي أحدا من أوليائه، ومن عادى وليا من أولياء الله، فقد آذنه الله بالحرب. ومن حاربه الله فقد عاد بالخسران المبين.

الدرس العاشر
٩٩_١١٠

تواصل آيات سورة البقرة في بيان موقف بني إسرائيل من القرآن، الذي نبذوه وراء ظهورهم، واتبعوا ما ألقت عليهم الشياطين من كتب السحر والشعوذة، وعادوا أهل الإسلام، عداوةً لا باعث عليها إلا الحسد.

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)

أخذ القرآن الكريم في تثبيت فؤاد النبي ﷺ، وتسليته عما يفعله معه اليهود. فالآيات التي أنزلت عليك يا محمد! هي آياتٌ واضحات، دالاتٌ على صدقك ونبوّتك. ولقد كشف القرآن هنا عن علّة كفر بني إسرائيل: إنّها الفسوق وانحراف الفطرة، فالطبيعةُ المستقيمةُ الصّادقةُ، لا يسعها إلا الإيمان.

أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)

ومن سوء حال اليهود، أنّهم كلما أعطَوا عهدا نقضه جماعةٌ منهم. ومن تلك العهود، الإيمان بنبوة محمد ﷺ كما ورد في التوراة عندهم. هذا العهد نقضه فريقٌ منهم، بل أكثر هؤلاء لا يؤمنون بالتوراة حقيقةً، لأن الإيمان يحمل صاحبه على الوفاء بالعهود والمواثيق.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)

ثم تحدّث القرآن بعد ذلك عن نبذهم لكتاب الله، فحين جاء إلى اليهود رسولٌ من عند الله، وهو محمد ﷺ، الذي يجدون وصفه مكتوبًا عندهم في التوراة، طرح أحبارُهم وعلماؤهم تعاليم التوراة وراء ظهورهم غير مبالين بها، حتى لكأنّهم يجهلون أنها من عند الله تعالى.

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)

وهنا تحكي الآية الكريمة لونا آخر من ضلال اليهود واتّباعهم للأباطيل، فهم بعد أن نبذوا التوراة وراء ظهورهم، اتبعوا طرق السِّحر والشعوذة، التي كانت تحدِّثهم بها الشياطين في عهد مُلك سليمان وفي زمانه، وفوق هذا، افتروا على سليمان - عليه السلام - بأنّه كان ساحرًا يركب الريح، وأنه ارتدَّ في أواخر حياته، وعبد الأصنام، وبني لها المعابد، إلى غير ذلك من الأكاذيب التي ألصقوها بسليمان عليه السلام، وهو منها بريءٌ. ولقد كذّبهم الله تعالى في هذا الزعم بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ أي: بتعلّم السحر والعملِ به كما يزعم هؤلاء، ولكن الشياطين هم الذين كفرُوا: بتعلمهم السحر وبتعليمه للناس.

وكانت الشياطين تعلّم الناس السحر، وما أُنزل على الملَكين هاروت وماروت بمدينة بابل بالعراق، وقد أنزلهما الله ابتلاءا وامتحانا للناس. وكان هذا الملكان لا يُعلِّمان السِّحر لأحد، حتَّى ينصحانه ويحذّرانه، فيقولان له: إنما نحن ابتلاءٌ وامتحانٌ للناس، فلا تكفر بتعلمك السحر! فلم يسمع لنصحهم كثيرٌ من النّاس، وأخذوا يتعلمون منهما علم السحر، ما يكون سببًا في التفريق بين الزوجين بزرع البغضاء بينهما. ونبّه القرآن الكريم إلى أنّ السّحرة مهما ملكوا من الإمكانيّات، فهم لا يستطيعون إلحاق الضّرر بأحدٍ إلا بإذن الله تعالى ومشيئته. ثمّ إنّ هذه الآية أكّدت بأنّ الذين يتعلّمون السحر، إنّهم يحصُدون الضّرر لا النفع. ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله واستبدلوا به السحر، أنهم ليس لهم في الآخرة من حظٍّ ولا نصيب، لأنهم آثروا السحر على كتاب الله تعالى، ولبئس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم، لو كان لهم علمٌ أو فهمٌ أو إدراكٌ!

وهنا يجدر التذكير بفعالية سورة البقرة في إبطال كيد السّحرة: قال النبي ﷺ: (اقرؤوا البقرة؛ فإنَّ أخذَها بركةٌ، وتركَها حسرةٌ، ولا يستطيعها البَطَلَةُ)، اي: كبار السحرة، والمقصود أنّ هذه السورة حصنٌ منيعٌ لمن يداوم على قراءتها، تحميه من كلّ شرٍّ وسوء، حتى أنّ كبار السحَرة يعجزون عن اختراق تحصينها. فيا مَن غفلتَ عن سورة البقرة! وعانيتَ الأوجاع بسبب عينٍ أو حسدٍ أو سحرٍ، بادر لتلحق بركب أهل سورة البقرة! آلامك، أحزانك، أوجاعك بمطرقة سورة البقرة، كلّها ستنكسر، ستضمحّل، ستتلاشى. اقرأها بيقين! وسترى...

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)

ولو أنّ اليهود آمنوا بالله حقًّا، وصدّقوا بالنبي ﷺ، وعملوا بالقرآن، وتركوا كتب السحر والشعوذة، وأخذوا الوقاية من عذاب الله بامتثال أوامره، لاستحقوا الثواب من عند الله، وهو خيرٌ وأعظم أجرا لو كانوا يعلمون.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)

اليهود قومٌ مخادعون: يتلاعبون بالألفاظ. وفي الآية نوعٌ آخر من السوء والشر، الذي كان يمارسه اليهود اتجاه النبيّ ﷺ، فقد كان النبي ﷺ إذا ألقى على المسلمين شيئًا من العلم، قالوا له: "راعنا"، أي راع أحوالنا! وتأنّ علينا! وأمهلنا حتى نتمكن من حفظ ما تُلقيه علينا! فانتهز اليهود الفرصة، وأخذوا يستخدمون ذات الكلمة: "راعنا" عند مخاطبة النبي ﷺ، لكنهم كانوا يحرّفون معناها، فيقصدون بها معنى فاسدا، وهو الرُّعونة، أي الحُمق. لهذا حذّر الله تعالى المؤمنين من محاكاة ألفاظهم واتّباع أساليبهم، فوجّه المؤمنين إلى حُسن اختيار الألفاظ، وعدم استخدام هذه الكلمة، حتى وإن كان قصدهم نبيلًا، وذلك سدًّا لهذا الباب، وأمرهم أن يقولوا بدلًا عنها: "أُنْظُرنا" أي: انتظرنا نفهم عنك ما تقول! وهي كلمة تؤدي نفس المعنى بلا محذور. ثمّ قال الله تعالى: ﴿وَاسْمَعُواْ﴾ أي استجيبوا واسمعوا أيّها المؤمنون! ما تُؤمرون به فافعلوه! وما تُنهون عنه فاتركوه! أمّا الكافرون الذين نالوا من رسول الله ﷺ وسبّوه، فلهم عذابٌ أليم موجعٌ.

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

وهنا، القرآن الكريم يسجّل صفةً أخرى من صفات اليهود، وهي: أنّهم قومٌ يحقدون على الآخرين، ولا سيما أهل الإسلام، فعليكم أخذُ الحذر منهم! فقد وصل الحال بهم وبالنّصارى وبمشركي العرب، أنّهم لا يحبّون أن يَنزل عليكم أيَّ خيرٍ من ربكم، قليلًا كان أم كثيرًا، كنعمة القرآن ونعمة والرّسالة ونعمة والهداية. فأنتم، أيها المسلمون! بهذه النِّعم جمع الله شملكم، ووحّد صفوفكم، وطهّر عقولكم من زيغ الوثنية، وهم يودّون نزولَ الشّر بكم، وانتهاءَ أمركم، وزوالَ دينكم، إلا أنّ حسد الحاسد لا يمنع نعم الله. ولقد ردَّ الله تعالى كراهيتهم، وبيّن أنّه يختصُّ بحمل رسالته وقرآنه من يشاء ممّن يؤديها ويقومُ بها خير قيام. وإنّ ذلك من فضل الله تعالى، ولذلك قال: ﴿وَاللَّهُ ذُو الفَضلِ العَظِيمِ﴾ أي: والله واسع الفضل والإحسان. وقد خصَّ الله تعالى هذه الأمة بخصائص كثيرة عظيمة، لم يجعلها لأحدٍ سواها. فالحمد لله.

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)

انتقل القرآن الكريم إلى الحديث عن موضوع النسخ، الذي أثار اليهود حوله الشبهات. ذكر المفسّرون أنّ اليهود قالوا: "ألا تعجبون لأمر محمد؟! يأمر أصحابه بأمرٍ، ثم ينهاهم عنه، ويقول اليوم قولًا، ويرجع عنه غدًا، ما هذا من شأن الأنبياء! وما هذا القرآن إلا من كلام محمد"ﷺ" لم يترك القرآن الكريم هذه الشبهات بدون جواب، بل جاء بما يَدحضها ويُزيلها من الصدور، ليزداد المؤمنون إيمانا. ومعنى الآية: أنَّ الله تعالى حين يرفعُ حكمَ آيةٍ من القرآن، أو يرفعُ لفظها، فينساها الناس، ويزيلُها من قلوبهم، فإنه سبحانه وتعالى يأتِ بما هو أنفع منها للمؤمنين، أو بما هو مماثلٌ لها. فدلَّ على أن النَّسخ لا يكون لمصلحةٍ أقلّ، لأن فضل الله تعالى يزداد خصوصًا على هذه الأمة التي سهَّل الله عليها دينَها غاية التّسهيل. وأنت ،أيُّها المخاطب! ألم تعلم أنّ الله قادرٌ على

فعل كل شيء؟ ومن كان هذا شأنه فله أن يأمر بأمرٍ في وقت، ثم ينسخه بأمرٍ آخر لمصلحةٍ يعلمها. وسيأتي معنا في سورة البقرة مثالٌ على النسخ، وهو: نسخ استقبال القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفه. وسنجد أنّ الآيات التالية، هي توطئةٌ لهذا النسخ.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)

أخبر الله تعالى بأنَّ من يقدح في النسخ، فهو يقدح في مُلك الله سبحانه وتعالى وقدرته: ألم تعلم أيّها المخاطب! أن الله هو مالك السماوات والأرض، يحكمُ ما يريد، فيأمر عباده بما شاء، وينهاهم عمَّا شاء، ويُقرّر من الشرع ما شاء، وينسخ ما شاء. وليس لكم أيّها المسلمون! من أحدٍ يتولى أموركم، وينصرَكم لى أعدائكم سوى الله، ومن كان الله وليَّه ونصيرَه، علم يقينًا أنَّ الله تعالى لا يفعل به إلا ما فيه خيرُه وسعادتُه.

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)

هنا القرآن الكريم يربّي المؤمنين، ويحذّرهم من الاستماع إلى وساوس اليهود واتّباع طريقتهم، فيقول: أتريدون يا أهل الإيمان أن توردوا الأسئلة على رسولكم ﷺ، أسئلة التعنّت والاعتراض والمجادلة، كما كانت بنو إسرائيل تورد الأسئلة على موسى عليه السلام؟ فتكونوا مثل اليهود الذين قالوا لنبيهم:﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وقالوا: وقالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ وغير ذلك، فتضِلُّوا كما ضلُّوا. ومن يستبدل الكفر بالإيمان، فقد حاد عن الجادَّة، وانحرفَ عن الصراط المستقيم.

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)

كثيرٌ من أهل الكتاب لم يقتصروا على كراهيتكم، أيها المسلمون! وإنما تمنّوا أن ترتدّوا عن دينكم، وأن تعودوا لفوضويّتكم وضلالاتكم وأصنامكم وأوثانكم. يحملهم على ذلك مشاعر الحسد اتجاهكم، من بعد ما ظهر لهم بالبراهين الساطعة أنّ دينكم هو الحق. فاتركوهم! وتجاوزوا عنهم! واصبروا على أذاهم! حتى يأتي حكم الله فيهم. إن الله على كل شيء قدير فينتقمُ منهم إذا حان الأوان فلا يعجزونه.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)

بعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بالصبر على أذى الكافرين، انتقل بعد ذلك إلى دعوة المسلمين إلى المحافظة على الشعائر التي تطهّر قلوبهم وتزكّي نفوسهم. وطريقة القرآن في مواجهة المشاعر السلبية من الحسد والمكر والكيد من قبل الأعداء، بأخذ هذه الطاقة المشحونة إلى جناب الله تعالى. فأمرهم بالمحافظة على عمودي الإسلام: الصلاة والزكاة. العبادة الأولى بدنيّة، تحسّن صلة المخلوق بخالقه سبحانه، والعبادة الثانية ماليّة، تؤلف بين قلوب المخلوقين. واعلموا! أنَّ ما تتقربون به إلى الله، من أيِّ عملٍ صالح، فإنّ نفعه يعود إليكم، وستجدون ثوابه عند الله، وهو رقيبٌ عليكم، مطلعٌ على أعمالكم، ويجازيكم عليها يوم القيامة.

الدرس
الحادي عشر
١١١-١٢٣

بيانٌ آخر لأباطيل أهل الكتاب: حيث أخذ اليهود والنّصارى يضلّلون بعضهم بعضا، ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء، حتى صار كل فريقٍ يزعم أن الجنة وقفٌ عليه.

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١)

ذكرت الآية لونًا من ألوان المزاعم الباطلة التي درَج عليها أهل الكتاب، حيث قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا. تلك أمانيُّهم الباطلة وخيالاتهم الفاسدة، التي لا تستند على دليلٍ من النقل، ولا على أساسٍ من العقل.

قل لهم يا محمد! ايتوني بالدّليل القاطع على ما تزعمون، إن كنتم صادقين حقًّا في دعواكم! ثمّ يأتي الردُّ من الله في الآية التالية.

بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)

إنّما يدخل الجنة من استسلم لله، وانقاد لله، وهو محسنٌ في اعتقاده وعبادته ومعاملاته وفق منهج الله. وهذه أوصافٌ لا تتحقَّق بعد بعثة النبي ﷺ إلّا في مسلمين. فهؤلاء لهم الأجر المضمون الذي لا يضيع عند الله، ولهم الأمن الموفور الذي لا يساوره خوف، ولهم كل السرورّ الذي لا يمسّه حزن.

الموَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)

اليهود والنّصارى تحسبهم جميعًا، لكن القرآن يكشف طبيعة العلاقة فيما بينهم حيث قال اليهود: ليست النصارى على دينٍ صحيح، وقالت النصارى: ليست اليهود على دينٍ صحيح. والحال أنهم أهل كتاب، فاليهود يقرؤون التوراة، والنصارى يقرؤون الإنجيل، فهم جميعًا يقرؤون الكتب التي أنزلها الله عليهم، وما فيها من الأمر بالإيمان بكل الأنبياء دون تفريق.

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعلَمونَ﴾، وهم مشركو العرب الوثنيّون، مثل قول أهل الكتاب. قالوا: ليس اليهودُ والنصارى والمسلمون على شيء، وقالوا: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء. فالله تعالى يحكم بين المختلِفين يوم القيامة، من اليهود والنصارى والمشركين، ويفصِل بينهم بقضائه العادل، فلا فوز يومئذٍ إلا بالإيمان بكلّ الأنبياء، وبكل ما أنزل الله تعالى.

فاعلموا يا أهل القرآن! أنّ الأمم الكافرة تعادي بعضها بعضا، وتكفِّر بعضها بعضا. لكنها تجتمع دائمًا في المعركة ضدَّ الإسلام. فالإسلام عدوٌّ مشترك لليهودية، والنصرانية وسائر الكفار والمشركين. كما يتّضح معنا أكثر في الآية التالية.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)

المشركون واليهود والنّصارى، كلُّ طائفةٍ من هؤلاء ادّعت أنّها على الحقّ، ورمت غيرها بالكفر، ثمّ اجتمعت كلّ هذه الطوائف على محاربة الإسلام، والتضييق على المسلمين، والسّعي إلى تخريب دور عبادتهم، ألا وهي المساجد.

فمشركو مكة، الوثنيون، عطّلوا بيت الله الحرام من عبادة الله تعالى وحده، وصدُّوا الرسول ﷺ عن المسجد الحرام عام الحديبية. والنصارى، كم أغاروا بحملاتهم الصليبيّة على بيت المقدس! وخرّبوا كثيرًا من المساجد في مختلف بلاد المسلمين. واليهود أحرقوا المسجد الأقصى، وخرّبوا مساجد فلسطين، واعتدوا على حرماتها، وروّعوا المصلّين الآمنين. والآية التي معنا تتحدّث عن سوء العاقبة لمن يسعى في خراب بيوت الله.

قال الشيخ السّعدي: "هذه الآية من الآيات العظيمة، أخبر بها الباري قبل وقوعها فوقعَت كما أخبر "يالله.

ومعنى الآية: لا أحد أظلم ممن حال بين المساجد وبين أن يُعبد فيها الله وسعى في خرابها. وخراب المساجد على قسمين: الخراب الحسّي: بهدمها وتخريبها وتقذيرها، والخراب المعنوي: بتعطيلها عن مهامها، كالمنع من الصّلاة والعبادة والذكر. فمن فعل ذلك فقد بالغ في الظلم.

أولئك الساعون في خراب المساجد، كان المرتقب منهم أن يدخلوها وهم في خشيةٍ وخوفٍ من الله لمكانة هذه المساجد من الشرف والكرامة بإضافتها إلى الله، فضلًا عن التجرؤ على تخريبها أو تعطليها. لذلك كان جزاؤهم: الذلّةُ والهوانُ في الدنيا على أيدي المؤمنين، والعذابُ العظيم في الآخرة من ربّ العالمين.

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)

ثم أخذ القرآن الكريم في تسلية المسلمين، الذين أخرجهم مشركو مكة، وفارقوا المسجد الحرام، مبينًا لهم أنّ الجهات كلّها لله تعالى. فجميع الأرض ملكٌ لله تعالى وحده، ففي أي مكان من المشرق والمغرب توجّهتم شطر القبلة التي أمركم الله تعالى باستقبالها، فقد استقبلتم الله. وفي أيّ موضعٍ أقمتم فيه الصلاة، قُبلت صلاتكم دون أن تَختص بها المساجد.

وهذا المعنى موافقٌ للحديث الصحيح: "جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا" وكأنَّ الآية تومئ إلى أنَّ سعي الظالمين في تخريبِ المساجد ومنعِ العبادة فيها، لا يمنع المسلم من أداء العبادة لله تعالى خارج المساجد.

وذيّلت الآية بقوله: ﴿إنَّ الله واسعٌ عليمٌ﴾ لإفادة سَعة ملك الله تعالى، وسَعة تيسيره على عباده في أمر الدين، وهو عليمٌ بأعمالهم، لا يخفى عليه عملُ عاملٍ، أينما كان وكيفما كان.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦)

من المقولات الفاسدة لأهل الكتاب والمشركين: ادعاؤهم أنَّ لله ولدًا، حين زعم اليهود أنَّ عزيرًا ابن الله، وزعم النصارى أنَّ المسيحَ ابن الله، وزعم المشركون أنَّ الملائكةَ بنات الله، فكذَّب الله تعالى الجميع في دعواهم وقال: "سُبْحَانه" أي تقدّس الله تعالى وتنزّه عمّا قالوا. ليس الأمر كما زعموا، بل الله خالقُ السموات والأرض وجميعِ الموجودات، التي من جملتها: الصّالحُ عزيرٌ، والمسيحُ عيسى، والملائكة الكرام، والكلُّ عبيدٌ لله، منقادون لله سبحانه، يتصرّف فيهم بما يشاء.

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)

وهنا يبيّن الله تعالى حقيقة العلاقةِ بين الخالقِ وبين المخلوقين. فالله تعالى خالق السماوات والأرض ومبدعهما على غير مثالٍ سابق. وإذا أراد الله حصول أمرٍ أو إيجاد شيء، فإنما يقول له: كن فيكون على ما أراد الله أن يكون، لا رادَّ لأمره وقضائه. ومن كان هذا شأنه، فكيف يُنسب إليه الأبناء أو البنات؟ بل هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم مشركو العرب: هلا يكلّمنا الله مشافهة بأنّك يا محمد رسول الله؟ أو تأتينا معجزةٌ دالة على صدقِ نبوّتك؟ وهذا الطلب قد صدر منهم على سبيل التعنت والعناد، وإلا فقد جاءتهم آياتٌ كثيرة.

وهذا القول الباطل مطابقٌ لقول مَن قبلهم من الأمم السابقة من اليهود والنصارى وغيرهم. تشابهت قلوبُ هؤلاء مع قلوبِ من قبلَهم، فأقوال أهل الباطل تتشابه لتشابه قلوبهم! في العمى والعناد والتكذيب والضّلال. أمّا الأدلة فهي واضحة، وأما البراهين فهي قائمة، لكنّها لا تنفع إلا قومًا يطلبون الحقَّ واليقين.

أمّا هؤلاء فليس الذي ينقصهم هو البرهان والدّليل، وإنّما الذي ينقصهم هو الصّدق واليقين. والذي يجد راحة اليقين في قلبه، سيجد في الآيات مصداق يقينه. فالآيات لا تُنشئ اليقين، إنّما اليقين هو الذي يدرك دلالتها، ويَطمئنُّ إلى حقيقتها. اللهم ارزقنا برد اليقين واجعلنا من عبادك المتّقين!

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)

بعد ذكر افتراءات الكافرين، ساق القرآن ما يسلّي النبي ﷺ ويثبّته: إنّا أرسلناك يا محمد! بالشريعة النيّرة، والدين القويم بشيرًا للمؤمنين بجنات النعيم، ونذيرًا للكافرين من عذاب الجحيم. ولستَ مسئولًا عمّن بقي على كفره، بعد أن بذلت جهدك في دعوته، "فلا تذهب نفسك عليهم حسرات"، "فإنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب".

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)

ثم بيّن القرآن موقف أهل الكتاب من الدّعوة الإسلامية: يا محمّد! إنّ اليهود والنّصارى لن يرضَوا عنك حتى تتركَ الإسلام الحقّ وتتبع دينَهم المحرّف. هذا هو الثَّمن الوحيد الذي يعرضونه ليمنحوك صكّ الرضى، وما سواه فمرفوضٌ.

قل لهم يا محمد بكلّ حزم!: إنّ الدّين عند الله الإسلام، وهو الحقّ والهدى، وما سواه فهو ضلالٌ وعمى. ولئن سايرتهم على آرائهم الزائفة، وأهوائهم الفاسدة، فلن تجد من الله حفظًا ولا مناصرةً.

يا أهل القرآن! كم هي عظيمةٌ هذه الآية! فهي تكشف لنا حقيقة المعركة، التي يشنّها أعداء الإسلام فوق كلِّ أرضٍ، وتحتَ كلّ سماء، وفي كل زمانٍ، وفي كلّ مكان، ضدّ الأمّة المسلمة. إنّها معركةُ عقيدةٍ في صميمها.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)

كما ذكر القرآن الكريم أحوال الكافرين من أهل الكتاب، أخذ في بيان حال المؤمنين من أهل الكتاب، لئلا يحصل اليأس عند الدعاة، من أهل الكتاب جميعًا. فليسوا سواءً: فطائفة من اليهود والنصارى أسلموا، وهؤلاء يقرؤون كتابهم قراءةً حقّة، مصحوبة بضبط لفظه، وتدبّر معانيه. فبضبط لفظه لم يحرفّوا كلام الله، ومنها النصوص الواردة في صفة رسول الله ﷺ عندهم، وبتدبّر المعنى اتبّعوا الحقّ الذي جاء في كتبهم، فآمنوا بالنبي محمد ﷺ وبما أنزل عليه، فأولئك هم المؤمنون حقًا. وطائفةٌ أخرى من أهل الكتاب أصرّت على كفرها فكان لها الخسران.

يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢)

وكما بدأت سورة البقرة بالحديث مع اليهود، بندائهم بأحبِّ أسمائهم إليهم، استمالةً لقلوبهم نحو الإيمان، فكان ختام الحديث عنهم أيضًا بهذا النداء:

"يا بني إسرائيل" يا أولاد النبيّ الصّالح يعقوب -عليه السلام-! أذكروا النعم الكثيرة التي أنعمت بها عليكم وعلى آبائكم وذكروا تفضيلي لكم على سائر الأمم في زمانكم ذكرهم اللع تعالة بهذه النعم لتكون توطئة للوصية التالي وهي وهي الوصية بالتقوى

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣)

يا بني إسرائيل خافو ذلك اليوم الرهيب التي لا تغني فيه نفسٌ عن نفس شيئًا ولا تقبل فيه فدية اطلاقًا ولا تقبل فيه شفاعة أحدًا لاحد كافرًا أبدًا فلا ناصر ولا عاصم من عذاب الله فإذا لم ينفع فداءٌ ولا شافعٌولا ناصرٌ فلماذا لا تعملون لذلك اليوم الرهيب نسأل الله أن نكون من الآمنين

الدرس الثاني عشر
١٢٤_١٣٤

يسوق الله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام والذي تزعم بني إسرائيل أنه قدوة لهم في عباداتهم وشرائعهم فتأتي الآيات المحكمات لتبطل هذه المزاعم بذكر قصة هذا النبي الجليل عند بيت الله العتيق

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)

سياق الآيات رجع إلى مرحلةٍ تاريخية أسبق، وهي عهد إبراهيم -عليه السلام-، لماذا؟ لأنها تؤدي دورًا محوريًّا في حسم الخلاف الذي شجر في المدينة بين أهل الكتاب وبين أهل الإسلام. فأهل الكتاب يرجعون بأصولهم إلى إبراهيم -عليه السلام- عن طريق إسحاق -عليهما السلام-، ويفتخرون بذلك، والعرب ترجع بأصولها إلى إبراهيم كذلك عن طريق إسماعيل -عليهما السلام- ويفتخرون بذلك. لذلك سياق الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أتى في وقته المناسب لتقرير الحقائق المهمّة حول الملّة والمنهج والعقيدة ولتقرير عقيدة إبراهيم عليه السلام.

قال الله تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ: اذكر حين اختبر الله عبده إبراهيم -عليه السلام-! وكلّفه بجملةٍ من التكاليف الشرعية من الأوامر والنّواهي، كما هي سنّته -سبحانه وتعالى- مع جميع عباده. فبهذه التكاليف والابتلاء يُعلم الصادق من المنافق، والثّابتُ من المتردّد، وقد كان إبراهيم -عليه السلام- نِعم من قام بكلّ التكاليف والأحكام وأدّاها على أكمل وجه. ومن أبرز تلك التكاليف: وقوفُه في وجه الوثنيّين، وتحطيمُ أصنامهم، ومقارعة كُبرائهم، والهجرةُ من ديارهم، والهمُّ بذبح ولده إسماعيل قربانًا لله، وبناءُ بيت الله الحرام. فجازاه الله من جنس عمله الصالح، فأخبره: بأني جاعلك للنّاس قدوةً يُقتدى بك في

أقوالك وأفعالك، في توحيدك وعبادتك، في صبرك وفي ثباتك. فما أسعدك يا إبراهيم بهذا الاصطفاء العظيم، وبهذا الشرف الرفيع! وأمام هذا العطاء الكبير رغِب إبراهيم -عليه السلام- في المزيد من فضل ربه فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعل يا ربّ من ذريتي كذلك أئمة يُقتدى بهم! فأجابه الله تعالى بقاعدةٍ عامة تبيّن عدل الله تعالى وحكمته قائلًا: ﴿لا يَنالُ عَهدِي الظّالِمينَ﴾ أي: لا يَنال الإمامة في الدين الظّالمون من ذرّيتك لأنّ الظلم ينافي مقام الإمامة في الدّين.

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)

واذكر يا محمّد! حين جعل الله البيت الحرام مرجعًا للناس ومقصدًا تتعلق به قلوبهم وتهفو إليه نفوسهم لا يفترون عنه، فكلّما رحلوا عن البيت الحرام رجعوا إليه. ثم زاد الله عبده إبراهيم -عليه السلام- فضلًا ومكانة فقال الله للنّاس: الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم -عليه السلام- وقت بناء الكعبة اتخذوا من هذا الحجر مكانًا للصّلاة! فصار من سُنّة الطّواف أن تُصلى ركعتان بعده خلف مقام إبراهيم -عليه السلام-كما أوصى الله نبيه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بتطهير البيت الحرام عن كل رجز معنوي كالأصنام والأوثان والنجس حسي كالأقذار والأوساخ حتى يتمكن الطائفون والعاكفون والمصلون من أداء العبادات بلا أذى يلحقهم أو يضايقهم فقضى الله لبيته الحرام رمزًا للطهر كما هو رمز للعبادة.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)

ساق القرآن بعد ذلك نماذج من الدّعوات التي تضرّع بها إبراهيم -عليه السّلام- إلى ربه: بدايةً دعا للبلد الذي حوى في قلبه أعظم بيتٍ على وجه الأرض دعا ابراهيم لمكة قائلًا: "ربّ اجعل هذا بلدًا آمنًا" لا يُتعرَّض فيه لأحدٍ بسوء في نفسه أو ماله أو عرضه فكانت مكة بدعاء الخليل حرمًا سلامًا ببشرها وزرعها ودوابها. والدّعوة الثانية خَصّ بها إبراهيم ساكني مكة المكرمة بأن يرزقهم الله بأنواع الثمرات المختلفة ليُقبلوا على طاعتك ويتفرّغوا لعبادتك. ثم إنّ إبراهيم تأدّب مع الله -سبحانه وتعالى- فجعل دعاءه هذا حِصرًا على المؤمنين بالله والمصدّقين بيوم القيامة حرصًا منه على شيوع الإيمان بين سكان مكة إلا أنّ الله تعالى أجابه: ومَن كفَرَ منهم كذلك فإنّي لن أحرمه الرّزق في الدّنيا ليتمتّع في حياته القصيرة أمّا في الآخرة فإنّي ألجِئه مُكرَهًا إلى عذاب النار و بئس هذا المصير الذي يصير إليه.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)

ها هما الآن النبيّان الكريمان إبراهيمُ وابنُه إسماعيل يرفعان قواعدَ الكعبة ويضَعَان أساسها انظروا إلى إسماعيل وهو يأتي بالحجارة وأبوه إبراهيم يبني! ها هو البيت يرتفع شيئا فشيئا حتى أصبح عاليًا لا تصل إليه الأيدي فيطلب إبراهيم من ابنه إسماعيل أن ي□□تيه بحجر ليَصعد عليه ليُكمل عمله ونحن نشاهد بناء البيت الحرام كما لو كانت رؤيةُ عين لا رؤيةُ خيال نكاد نسمع صوتَيهما وهما يبتهلان ويدعوان الله بخضوعٍ وإجلال: "رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" ما أروع أدب النبوة! ربنا اقبل منّا كل أعمالنا! ومنها بناء بيتك المعظّم يا ربّ! إنّه عمل خالصٌ لوجهك والغايةُ المرجوة من ورائه هي الرضى والقبول فأنت يا الله! سميعٌ لدعائنا عليمٌ بقصدنا ونيّاتنا.

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)

ومضَيا إبراهيمُ وإسماعيلُ -عليهما السلام- يدعوان الله ويبتهلان إليه في خشوع قائلَين: ربّنا اجعلنا مستسلمَين لأمرك وخاضعَين لك! وكذلك اجعل من يأتي بعد من ذريتنا أمةً مستسلمةً لك! مذعنةً لأوامرك ونواهيك وأرشدنا يا الله! لشرائع ديننا وأمور عبادتنا وأعمالِ حَجّنا ووفّقنا للتوبة وارحمنا! فأنت عظيم المغفرة أنت واسع الرحمة.

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

وختَم النبيّان الكريمان إبراهيم وإسماعيل-عليهما السلام- دعاءهما بكلماتٍ عظيمة هي من أعظم الدعاء الذي دَعَوَاه لذرّيتهما بل وللناس أجمعين فقالا: ربنا وابعث في الأمة المسلمة رسولًا من أنفسهم! يعرفون نسبه وشرفه وصدقه وأمانته تكون مهمّته: يقرأ عليهم آياتِ كتابك ويعلّمهم ما يوحى إليه من القرآن والسنة النبوية ويطهرهم من الشركِ والوثنية وذميمِ الخصال ويسمو بهم لكريم الأخلاق. إنك يا ربنا! "العزيز" الذي لا يُغلب ولا يُقهر و"الحكيم" فيما يفعل وفيما يأمر وفيما يقدّر. وقد استجاب الله تعالى دعاء إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- ببعثة السّراج المنير محمد ﷺ وتلك نعمةٌ عليه وعلينا حين اصطفاه الله تعالى من ذرية إسماعيلَ كلِّها ليكون سيّدَهم ومرشدَهم ونبيَّ العالمين وجعل الكتاب الذي نزل عليه نورًا للدنيا كلّها ومهيمنًا على كل ما سبقه. فالحمد لله رب العالمين.

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)

الآية الكريمة عرّضت بالجاحدين والمعاندين الذين تركوا اتباع ملةِ إبراهيم: الملةِ السمحةِ الغراءِ النقية التي تدعو إلى الغاية الحقيقيّة من خلق البشرية. فلا أحد يُعرِضُ عن دين إبراهيم -عليه السلام- إلى غيره من الأديان المحرّفة إلا من أذلّ نفسه واحتقرها. كيف تُعرضون عن ملة إبراهيم؟ وقد اختاره الله عز وجل واصطفاه وفضلّه بالنبوة والرسالة والخُلّة وجعله قدوةً للناس يأتمُّون به ويتأسُّون به. هذا فضله في الدنيا وإنّه في الآخرة لَمِنَ الصالحين المقرّبين.

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)

كان إبراهيم -عليه السلام- ولازال أسوةً للناس ومثلًا أعلى في الخضوع لله -عز وجل- فانظر حين قال له ربه!: أسلم! أي: استسلم لي وامتثل لأمري! فما كان من الخليل -عليه السّلام- إلا أن قال بملء فمه وقلبه: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لم يجادل ولم يتعنّت ولم يتساءل ولم يساوره شكٌّ في حكمة الله الذي دبّر شؤون خلقه ورباهم بنعمته ورحمته.

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)

بعد أن بيّن الله تعالى أنّ إبراهيم -عليه السلام- كان كاملًا في نفسه أتبع ذلك ببيان أنّه كان أيضًا يَعمل على تكميل غيره ودعوتِه إلى توحيد الله -سبحانه تعالى- ولأن الأبناء أولى بالنُّصح والإرشاد وصى إبراهيمُ -عليه السلام- أبناءه بهذه الملّة الحنيفيّة كما أوصى بها يعقوبُ بنيه فقال كلٌّ منهما لأبنائه: يا أبنائي! إنّ الله ارتضى لكم دين الإسلام الذي لا يَقبل الله دينًا سواه فاثبتوا على الإسلام !واستمسكوا بالإسلام! حتى يدرككم الموت وأنتم مقبلون على هذا الدّين الحنيف.

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)

أنكرت الآية على اليهود افتراءاتهم لمّا زعموا أنّ يعقوب -عليه السلام- كان على الملّة اليهودية. فردّ القرآن عليهم: هل كنتم شهودًا حاضرين حين حضرت الوفاةُ يعقوبَ؟ فعرفتم الملة التي مات عليها؟ فإن قالوا: كنا حاضرين فقد كذبوا وانكشف أمرهم. وإن قالوا: لم نحضر إذن بَطَلت دعواهم أنّ يعقوب كان يهوديًّا ووصى بنيه باليهوديّة. يفتخر اليهود بأنّهم أبناء يعقوب -عليه السلام- الذى لقّب بعد بإسرائيل فماذا كان يعقوب؟ يعقوب كان عبدًا موحّدًا كان نبيًّا صالحًا حسَن الصلة بالله يعرفُه معرفةً وثيقةً ويستسلم لقضائه وقدره. هو وأبناؤه كانوا مسلمِين موحِّدين ولم يكونوا يهودًا ولا نصارى. ويعقوبُ حينما حضرتهُ الوفاة، جمع بنيه ليستوثق قبل وفاته من أنهم لن يفرّطوا في إيمانهم مثقال ذرة. سألهم سؤالًا فيه اختبارٌ لهم: *"ما تعبدون من بعدي؟"* فكان جواب أبنائه الصالحين: *"نعبد الله الذي هو إلهُك، وإلهُ آبائك السّابقين، إلهُ جدِّك إبراهيم، وإلهُ عمِّك إسماعيل، وإلهُ أبيكَ إسحاق، إلهًا واحدًا أحدًا لا نشرك به شيئًا، ونحن مستسلمون له ومنقادون إليه"*.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)

في الآية تحذيرٌ لأهل الكتاب من ترك طاعة الله، اتكالًا على انتسابهم لآباء كانوا أنبياء أو صالحين. *﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا﴾*: فإبراهيم -عليه السلام- وذريته الصّالحة أمةٌ قد مضت، وأفضت إلى ما قدمت، لها جزاء ما كسبت من الأعمال. وأنتم معشر يهود، لكم ما اكتسبتم من أعمالكم، ويوم القيامة لا تُسألون عن أعمال غيركم، وإنما ستسألون عن أعمالكم وحدها. فأصلحوها وحسّنوها! وآمنوا بمحمد ﷺ! الذي هو دعوة إبراهيم -عليه السلام-.

اللهم اجعلنا مَن اتبعَ أنبياءك ورسلك، واحشرنا معهم يا رب العالمين!

الدرس الثالث عشر ١٣٥- ١٤٣

ملة إبراهيم** هي ملة الحنيفية السمحة، من رغب عنها فقد وقع في الجهالة والسّفاهة، ولا صحّة لمن زعم بأنّ الهداية في اتباع اليهودية أو النصرانية، بل الهداية في اتّباع الإسلام الذي هو دينُ جميع الأنبياء والمرسلين.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)

من افتراءات أهل الكتاب: أنّه من أراد الهداية فعليه باتباع ديانتهم، حيث قال اليهود: كونوا على ملتنا يهودًا تهتدوا، وقال النصارى: كونوا على ملتنا نصارى تهتدوا. فكلا الفريقين يدعو إلى دينه المحرّف. قل لهم يا محمد! بل تعالَوا إلى الملة الحنيفية! نتّبع ملّة أبيكم إبراهيم -عليه السلام- الذي تدّعون أنّكم على دينه.

والحنيفُ في الأصل هو المائل. ووُصِف به إبراهيم -عليه السّلام- لأنّه كان مائلًا عن الأديانِ الباطلةِ كلّها، مال عنها واستقام على الدين الحقّ، وما كان من المشركين، بل كان مؤمنًا موحّدًا. وقد اتفقنا جميعًا على صحة دين إبراهيم -عليه السلام- والأخذُ بالمتفق عليه أولى من الأخذ بالمختلف فيه.

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)

يرشد الله المؤمنين إلى جوابٍ جامع، وكلمةٍ سواء تفيد نبذ التعصّب، وتدعو أهل الكتاب إلى اتباع الوحي الإلهي، الذي أرسل الله تعالى به الأنبياء جميعًا. قولوا أيها المؤمنون لأهل الكتاب! الذين يزعمون أنّ الهداية في اتباعِ ملّتهم، قولوا لهم: ليست الهداية في اتباع ملّتكم، فقد دخلها الشرك والتحريف، وإنما الهداية في أن نؤمنَ بالله تعالى، وبالقرآن الذي أُنزِل علينا، ونؤمنَ بما أُنزل على إبراهيم وعلى أبنائه: إسماعيل وإسحاق ويعقوب، ونؤمنَ بما أنزل على الأسباط، وهم الأنبياء من ولد يعقوب -عليه السلام- ونؤمنَ بالتوراة الحقّ، التي أنزلها الله على موسى غير المحرّفة، ونؤمنَ بالإنجيل الحقّ، الذي أنزله الله على عيسى غير المحرّف، ونؤمنَ بالكتب التي أنزلها الله تعالى على الأنبياء جميعًا. لا نفرّق بين أحدٍ من الأنبياء، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلتم، بل نشهد بأنّ الجميع رُسُلُ الله، ونحن لله وحده منقادون خاضعون.

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)

فإن آمن اليهود والنّصارى إيمانًا مثل إيمانكم يا معشر المؤمنين! وصدّقوا مثل تصديقكم، فقد اهتدوا إلى الحقّ وإلى الصراط المستقيم. وإن أعرضوا عن هذا الإيمان الشّامل والكامل، وكذّبوا بالأنبياء كلهم أو ببعضهم، وكذّبوا بالكتب كلّها أو ببعضها، فاعلم! أنهم إنما يريدون عداوتك وخلافك، وليسوا من طلب الحق في شيء. فلا تحزن يا محمد! اطمئنّ! سيكفيك الله تعالى أذاهم، ويمنعُك من شرهم، وينصرُك عليهم، فهو السميعُ لأقوالهم، والعليمُ بنياتهم وأفعالهم. يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرونه من المكر والشرّ والخديعة.

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)

يبيّن الله تعالى في الآية الكريمة أنّ دين الله تعالى وهو الإسلام، هو أفضل الأديان، وأحسن الشرائع، وهو أولى بالاتباع. ﴿صِبْغَةَ اللهِ﴾ أي الزموا دين الله! وهو الإسلام الذي صبَغنا الله تعالى به، وفَطَرنا عليه فظهر أثره علينا، كما يظهر أثر الصّبغ في الثوب. هذه هي صِبغة الله، أمّا ما يلقّنه الأحبار والرّهبان لأتباعهم من التشريعات المحرّفة، فهي من صِبغة البشر. فهل نختار صِبغة الله أم صِبغة البشر؟ العاقل لابدّ وأن يختار صِبغة الله ودين الله، إذ لا دين أحسنَ من دين الله: دينٌ يهدي إلى الاعتقاد الصّحيح، والخُلقِ الكريم، والعاداتِ الحسنة، والسياسةِ الرشيدة، والمعاملاتِ القائمة على رعاية المصالح ودرء المفاسد.

وفي هذه الآية توطئةٌ لانتقال الخلافة إلى المسلمين بعد استبعاد من سبقهم، استُبدل قوم قالوا: "سمعنا وعصينا"، بقومٍ قالوا: "سمعنا وأطعنا". ستأتي آيات سورة البقرة الآن لتبيّن المنهج الذي ارتضاه الله تعالى للبشرية، تعرض الإيمان الكامل بكل أركانه وموجباته، وتعرض الإسلام الشّامل، بكل أركانِه وتشريعاته، وأحكامِه ونُظمِه، التي يحتاجها النّاس في سائرِ مجالات الحياة: العقائديّة والعباديّة والرّوحانيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والأسرية والاجتماعية. لتأسيس نظامٍ متكاملٍ: يؤسّسُ الفرد ويربّي الأسرة وينظّمُ الجماعة، لتكوين مجتمعٍ فاضل يقوم على تقوى الله تعالى، وحُسنِ عبادته، وبه تعمرُ الأرض.

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩)

ادّعى أهل الكتاب أنهم أولى بالله منّا، وأحقّ بأن تكون النبوّةُ فيهم، فردّ القرآن عليهم بحجّتين مُبطلتين لدعواهم في هذه الآية القصيرة:

- *الحجّة الأولى:* يا أهل الكتاب! أتجادلوننا في شأن الله زاعمِين بأنّكم أولى بالله منّا؟ هذا كلامٌ لا يستقيم: فالله كما هو ربُّكم، فهو ربُّنا كذلك، وهو ربُّ الجميع على السَّواء. لا تختصُّون به وكلّنا عبيده.

- *الحجّة الثانية:* لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم، لا يتحمّل أحدٌ وزر غيره، فالتفاضل في المنازل عند الله ليس بالنّسب ولا بالعِرق، وإنما بالأعمال الصالحة والإخلاص لله تعالى فيها. وأنتم قد وقعتم في الشّرك، بعبادة عُزيرٍ والمسيحِ مع الله تعالى، أمّا نحن فمخلصون لله تعالى في العبادة، لم نشرك به شيئًا.

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)

ادّعى أهل الكتاب أنّ الأنبياء والرسل السابقين، كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط -عليهم السلام- كانوا على ملّة اليهودية أو النصرانية. فيا معشر أهل الكتاب! هل أنتم أعلم بديانتهم أم الله؟ فإن زعموا أنَّ هؤلاء الأنبياء كانوا على ملّتهم فقد كذبوا؛ لأن مَبعثَ هؤلاء الأنبياء وموتَهم كان قبل نزول التوراة وقبل نزول الإنجيل. فكيف صاروا هودًا أو نصارى؟ وهم بهذا يكتمون الحقّ. ولا أحدٌ أشدّ ظلما من الذي أخفى شهادة ثابتةً عنده، عَلِمَها من الله. وليس الله بغافل عن أعمالكم وسيجازيكم عليها.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

هذه الآية كرّرها الله تعالى لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي إذا كان أولئك الأنبياء على فضلهم وجلالة قدرهم، سيُجازَون بأعمالهم وكسبهم، فأنتم أولى أن تجازوا بأعمالكم وكسبكم. فلا معنى للافتخارِ بالآباء والأسلاف، والاتكالِ على الماضي لأنّه شأن العاجز الضعيف، الذي لا يعمل في حاضر، وإنّما يتباهى بماضيه، فكلّ نفسٍ بما عَمِلت رهينة.

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢)

هذه الآية من إعجاز القرآن الكريم، حيث تحدّثت عن المقولة قبل وقوعها، فكان الأمر كما أُخبرت. وتوضيح ذلك: كان المسلمون في المدينة المنورة يستقبلون بيت المقدس في صلاتهم. استقبلوا بيت المقدس بضعة عشر شهرًا، أي ما يقارب السّنة والنصف، وقبل تحويل القبلة إلى البيت الحرام، أخبر الله تعالى نبيّه ﷺ بما سيقوله اليهود اعتراضًا على تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة. سيقول الجهال خِفَافُ العقول من اليهود ومِن المنافقين: ما الذي صرَف المسلمين عن قبلة بيت المقدس، التي كانت قبلتَهم من قبل؟ وفعلًا قالوا تلك المقولة وأثاروا الدعاية المسمومة في الصف الإسلامي بهذه المناسبة، فعلّم الله تعالى نبيّه ﷺ الحجةَ الدامغةَ ليردّ عليهم. أجبهم يا محمد! قائلًا: الجهاتُ كلها مُلكٌ لله، فلله المشرق والمغرب، لا مزيّة لجهة دون أخرى، وإنما الأمر بيد الله يختار ما يشاء. وله أن يخصَّ جهةً بحُكم دون أخرى. فإذا أمرنا الله تعالى باستقبال جهةٍ في الصلاة، فليس أمامنا إلا الاستجابة لأمر الله دون تململ ولا مجادلة. والله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء من عباده، إلى صراط مستقيم لا اعوجاج فيه ولا انحراف.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)

جعل الله تعالى الأمة الإسلامية أمةً خيارًا عدولًا، وسطًا بين الأمم كلها. والوسطيةُ تعني: الأفضليةَ والخيريةَ والرفعة. فأمة الإسلام وسطٌ في كل شيء، وسط في: العقيدة والشريعة والأخلاق والمعاملات. جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا يوم القيامة شهداء للأنبياء والرسل، على أنهم بلّغوا أقوامهم ما أمرهم الله تعالى بتبليغه ونصحوهم بما ينفعهم. وليكون الرسول ﷺ كذلك شهيدًا عليكم، أنَّه بلغكم بما أُرْسِل به إليكم.

ثم بيّن الله تعالى الحكمة في تحويل القبلة إلى الكعبة: وما جعلنا تحويل القبلة إلا لنختبر ونمتحن أهل الإيمان، فنعلمَ من يستجيبُ لأمر الله ويتّبعُ الرسول ﷺ، ونعلمَ من يرتدُّ عن دين الله ويشكُّ في دين الله لضَعف يقينه. ثمّ بين الله تعالى آثار تحويل القبلة في نفوس المؤمنين وغيرهم، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّها لَكَبِيرَةً﴾ أي كان أمر تحويل القبلة عظيمًا وصعبًا وشاقًا إلا على أهل الإيمان الذين ثبّتهم الله تعالى، وبثَّ الهداية في قلوبهم، فلم تُؤثر فيهم المفاجأة، ولم يصدمهم الحدث.

تأمّلوا إلى بني سلمة! الذين وصلهم خبر تحويل القبلة وهم يصلون، إذ مرَّ بهم أحد الصّحابة الذين صلَّوا مع رسول الله ﷺ، فوجدهم يصلون جهة بيت المقدس، فنادى فيهم: "يا قوم! إنّ رسول الله ﷺ قد أُنزِل عليه الليلةَ قرآنٌ، وقد أُمِرَ أن يستقبل الكعبة فاستقبِلوها!" وكانت وجوهُهم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة وهم يصلّون.

يا الله! يا الله! ما أسرع الاستجابة! لم يقولوا: أتتخذنا هزوا؟ مرةً تجعل القبلة هنا ومرةً هناك! ولم يقولوا: سنُكمل الصلاة وبعدها لكل حادثةٍ حديث. أبدا! أبدا! وإنّما بادروا بالاستجابة، لأن التجرّد يجعل المسلم مستسلما لله تعالى في كل شؤون حياته: يقبل أحكام الله بالسمعِ والطاعة، والحبِّ والاستسلام، دون جدلٍ أو اعتراض، أو نقاشٍ أو تململ بعكس المنافق الذي يُكثر من السؤال والنقاش، ليس بقصد الفهم وإنما بقصد التشكيك والجدل.

ومازال مسجد بني سلمة شاهدًا إلى اليوم، على سرعة استجابة الصحابة لأمر الله، وقد سمِّي مسجدُهم من يومها بــ: مسجد القبلتَيْن. وقد ذكر المفسّرون أنّ اليهود اعترضوا على تحويل القبلة، وشكّكوا في صلاة [illegible] مَن مات قبل تحويل القبلة، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ ومعناها: ما كان الله ليُذهب صلاتكم وأعمالكم [illegible] سبقت تحويل القبلة إلى الكعبة، لأنه سبحانه رؤوفٌ رحيمٌ بعباده، ولا يُضيّع أجر من أحسن عملا.

الدرس الرابع عشر ١٤٤-١٥٢

كان نبينا ﷺ يتشوّق لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، وعلم الله تردد وجهه جهة السماء تطلعًا إلى نزول الوحي عليه، وتوقعًا لما ألقي في روعه من تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان أول ما نُسخ في القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود، فأمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس. ففرحت اليهود، فاستقبله رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرًا، وكان يحب قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، فكان يدعو الله تعالى وينظر إلى السماء، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: كثيرًا ما رأينا تردد بصرك يا محمد! جهة السماء تشوقًا لتحويل القبلة، فلنوجهنك إلى قبلةٍ تحبها وهي الكعبة المشرفة.

وكان النبي ﷺ يتشوق لتحويل القبلة إلى الكعبة لأسباب:

١. أنها قبلة أبيه إبراهيم، والأمة المسلمة هي الوارثة لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

٢. سعيًا لاستمالة العرب إلى الدخول في الإسلام.

٣. مخالفةً لليهود الذين أخذوا يقولون: إن محمدًا يخالفنا في ديننا ويتبع قبلتنا.

فأعطاه الله تعالى ما سأل: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي توجّه في صلاتك نحو الكعبة المشرفة! وحيثما كنتم أيها المؤمنون! فتوجهوا في صلاتكم نحو الكعبة! وكان تحويل القبلة في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة النبوية.

وقد كشف القرآن لنا حقيقةً عجيبة وهي أن أهل الكتاب كانوا يعلمون أن تحويل القبلة إلى الكعبة هو حق من عند الله تعالى، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾. لقد ورد أمر تحويل القبلة في كتبهم بأنه ستأتي ساعةٌ لن تكون فيه أورشليم قبلةً للسجود. الله أكبر. لو بقيت القبلة إلى بيت المقدس، لطعن أهل الكتاب في نبوة محمد ﷺ، فلما تحولت القبلة إلى الكعبة، كان ذلك علامةً ظاهرةً على نبوة محمد ﷺ لكن أهل الكتاب كتموا الحق، وبدل إظهار الإيمان أظهروا الاعتراض كصورةٍ من صور عنادهم ومكابرتهم، لكن الله تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وكتمانهم للحق وسيجازيهم عليها.

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)

كان النبي ﷺ من رحمته حريصًا على إيمان أهل الكتاب، فكان يود لو تزال كل شبهةٍ عند أهل الكتاب حتى يؤمنوا، فأخبره الله تعالى: واللهِ يا محمد! لئن جئتَ لليهود والنصارى بكل معجزةٍ ودليلٍ على صدقك في أمر القبلة، ما اتبعوك، ولا صلوا إلى قبلتك، فإنهم ما تركوا قبلتك لشبهةٍ عارضة، وإنما خالفوك عنادًا واستكبارًا. ولستَ أنت يا محمد! بمتبعٍ قبلةَ أهل الكتاب، ولا النصارى يتبعون قبلةَ اليهود، كما أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى، لأن كل فريقٍ منهم يكفر الفريق الآخر، مع أن الكلَّ من بني إسرائيل.

ثم ساق القرآن بعد ذلك تحذيرًا للمسلمين من اتباع أهل الكتاب. وجاء هذا التحذير في شخص النبي ﷺ: ولئن اتبعتَ يا محمد! أهواء هؤلاء، في شأن القبلةِ وغيرها من الشرائع والأحكام، من بعد ما جاءك من الهدى والعلمِ الصحيح، إنك حينئذ لمن الظالمين.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)

اليهود والنصارى يعرفون أمر تحويل القبلة، وهو من علامات نبوة محمد ﷺ عندهم، لكنهم كتموا هذا الحق، ويعرفون أن محمدًا رسول الله: فصفته في كتبهم واضحة، بل يعرفونه كما يعرف الواحد منهم ولده، لا يشتبه عليه غيره. ومع ذلك فإن طائفة منهم، وهم رؤساؤهم وأحبارهم، ليكتمون هذا الحق، وهم يعلمون علم اليقين بأنه الحق. ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ما أوحاه الله إليك يا محمد! من أمر القبلة وأمور الدين، هو الحق. فلا تكوننَّ من الشاكين في صحته! والخطاب هنا للنبيّ ﷺ ويشمل أمته.

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)

بين الله تعالى بأن لكل أمةٍ من الأمم قبلة يتوجهون إليها في عباداتهم، فلليهود قبلة، وللنصارى قبلة، وللمسلمين قبلة. فالخصوصية والتميز ضروريان للأمة المسلمة، في التصور والاعتقاد وفي القبلة والعبادة. وبهذا يصرف الله تعالى المسلمين عن الانشغال بكلام الخصوم والمخالفين، وبما يثيرونه من دسائسَ وشبهات، وما يبثونه من أباطيلَ وأقاويل، يصرفهم الله تعالى إلى الشأن الأهم وهو العملُ والاستباقُ إلى الخيرات، فسابقوا أيها المؤمنون إلى فعل الخيرات! وهي التي تنفعكم بعد الموت، يومَ يجمعكم الله تعالى للحساب، والله قادر على كل شيء: قادرٌ على جمعكم بعد مماتكم وإن تفرقت أجسادكم.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩)

أكد الله تعالى في هذه الآية الكريمة على أمر استقبال القبلة حال الصلاة، فأنت أيها النبي! مأمورٌ باستقبال المسجد الحرام حالتي السفر أو الحضر: فمن أي موضعٍ خرجتَ، وإلى أي مكانٍ سرتَ، فول وجهك عند صلاتك إلى المسجد الحرام! وإن هذا التوجه جهة الكعبة لهو الحق الذي لا شك فيه عند ربك. وما الله بغافلٍ عما تعملون، بل هو مطلعٌ على أعمالكم وسيجازيكم عليها.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)

للمرة الثالثة يكرر الله تعالى الأمر للمؤمنين باستقبال المسجد الحرام في صلاتهم. وهذا التكرار لتأكيد أمر القبلة وتشديده في نفوس المؤمنين حتى يستقر في مشاعرهم، ويذهب ما أثير حولها من شبهات. ثم بين الله تعالى ثلاث حكم لتحويل القبلة:

١. **_الحكمة الأولى_**: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: لئلا يحتج اليهود على المسلمين فيقولوا: يكفر محمدٌ بديننا ويتبع قبلتنا. أو يحتج مشركو العرب فيقولوا: يدعي محمد اتباع ملةِ إبراهيم ويخالف قبلته. إلا الظلمة المعاندون أصحابُ الهوى، فهؤلاء لا يقبلون أي تعليلٍ أو حجة، فلا تخافوهم لأن حجتهم باطلة! والباطلُ صاحبه مخذول، بل المستحق للخشية والخوف هو الله تعالى وحده، وهذا أصلُ كل خير.

٢. **_الحكمة الثانية_**: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ إتمام النعمة على العرب المسلمين، بتحويل القبلة إلى قبلة أبيهم إبراهيم عليه السلام. وإذا آمن العرب أحبوا أن تكون وجهتهم الكعبة، لأنه موضع عبادتهم وموطن عزهم وفخارهم. فلله الحمد على فضله.

٣. **_الحكمة الثالثة_**: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ من أعظم نعم الله تعالى على الأمة، الهداية: هدايةُ العلمِ وهداية العملِ بالعلم. بينما أهل الكتاب علموا الحق لكنهم لم يعملوا به، بل كتموه. فاللهم ارزقنا الهداية دوما وثبتنا عليها!

والمسلمون اليوم في الشرق والغرب يتوجهون يوميًا إلى بيت الله الحرام، رغم اختلاف اللسان والألوان والبلدان. يجمعهم دينٌ واحد، ورسولٌ واحد، وقبلةٌ واحدة. فلنتعلم من هذا وحدة الأمة في المنهج والرسالة والغاية.

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)

تحدثت سورة البقرة عن بني إسرائيل فيما يزيد على ثلث السورة، وذكرت بالتفصيل نعم الله تعالى عليهم التي قابلوها بالجحود والكفران. وبسبب فشلهم في مهمة الاستخلاف في الأرض، تم استبعادهم عن هذه المهمة، بل تم طردهم ولعنهم. ثم جاء دور المسلمين، ليحققوا الغاية التي تكلّم الله تعالى عنها في أول السورة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. هناك عند وادٍ غير ذي زرع، قام رسولان كريمان يرفعان قواعد الكعبة. توجها إلى الله بالدعاء: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾. إن الدعوة الصادقة يستجاب لها، وكانت الاستجابة بعد قرون وقرون. هي في عرف الناس أمدٌ طويل، لكنها عند الله تعالى لها أجلٌ معلوم، وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل هي بعثة محمد ﷺ. نعم أنعم الله تعالى على العرب أن أرسل إليهم رسولًا من أنفسهم، وهذا شرفٌ عظيمٌ لهم، ومجدٌ لا يعدله مجد.

ثم ذكر الله تعالى بعض مهمات هذا النبي الكريم:

- **المهمة الأولى**: يقرأ عليكم القرآن بلسانٍ عربي مبين.

- **المهمة الثانية**: يطهركم من الشرك، وسيء الأقوال، وقبيح الأفعال.

- **المهمة الثالثة**: يعلمكم القرآن والسنة.

- **المهمة الرابعة**: يعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه من أمور دينكم ودنياكم.

نعم لقد كان العرب قبل الإسلام في حالةٍ شديدة من ظلام العقول، وفساد العقائد، فبعث الله تعالى محمدًا ﷺ، بعثه بـ: لا إله إلا الله. دعا العرب إليها فأبوها، فأمر أن يقاتلهم حتى يقولوها. خيرهم بين كلمة لا إله إلا الله وبين السيف، فاختار العرب السيف على أن يقولوها.

لأنهم علموا أن هذه الكلمة ليست مجرد كلمةٍ تقال بطرف اللسان، ولكنها دستورٌ كاملٌ للحياة. لقد كان العرب أذكياء: فهموا معنى هذه الكلمة، وكانوا أشرافًا، فلم يحبوا أن ينطقوها بأفواههم ثم يخالفوها بأفعالهم. ولذلك رفضوها، حاربوها، بل استسهلوا القتل عن النطق بها.

لكن لما أعدهم الله لهذه الكلمة، وكتب لهم السعادة فقالوها، صاروا سادة للدنيا، وخلاصة للإنسانية، وملائكة البشر.

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)

ثم أمر الله تعالى عباده بأن يكثروا من ذكره وشكره على ما أسبغ عليهم من نعمه، فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾. اذكروني بقلوبكم وجوارحكم! وأنا سأذكركم بالثناء عليكم والحفظ لكم، فالجزاء من جنس العمل. واشكروا نعمتي عليكم ولا تكفروها بالجحود والعصيان! أو استعمالها فيما يغضب الرحمن.

يا أهل القرآن! هناك عبيدُ للنعم، وهناك عبيدُ للمنعم (أي الله). عبيدُ النعم كثيرون، بينما عبيدُ المنعم قليلون. حين نادى اللهُ تعالى بني إسرائيل قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾. كررها الله عليهم ثلاث مرات، ذكرهم بالنعم حتى يعرفوا المنعم.

وأما أمة محمد ﷺ فقد ذكرهم الله تعالى بالمنعم فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، ليتعرفوا من المنعم على النعم. وشتان ما بين الأمرين، كما هو الفرقُ بين الأمتين.

لقد نجح أصحاب محمد ﷺ في الاستجابة لأوامر الله، فكان القرآن ينزل وهم يعملون، والسنة تتلى وتأمر وهم يطيعون، والوحي يخطط للفرد والمجتمع وهم ينفذون، فأمست المدينة برجالها الجدد ونظامها الجديد عاصمةً فذةً لأخطر الرسالات.

الدرس
الخامس عشر
١٥٣_١٦٧

بعد أن أمر الله تعالى عباده المؤمنين بذكره وشكره، وجّه الله إليهم نداءًا بلفظ الإيمان ليستنهض هممهم إلى امتثال الأوامر الإلهية، وهو النداء الثاني الذي جاء بلفظ الإيمان في سورة البقرة.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)

بعد تحديد القبلة الخاصّة بأمّة الإسلام، ذاتِ الشخصيّة الخاصّة والكيانِ الخاص، جاء الأمر الإلهي للمؤمنين بالاستعانة على أمور الدّين والدنيا بأعظم سلاحين يُعينان على تكاليف هذا الدّور العظيم وهما: الصّبر والصلاة. فبالصبر تنالون كلَّ فضيلة، وبالصلاة تنتهون عن كلِّ رذيلة. وقد خصّ الله تعالى الصبر والصلاة معا لأن الصّبر أشدُّ الأعمال الباطنية، والصّلاة أشدُّ الأعمال الظاهرية. إلا أنّ الصلاة هي أمُّ العبادات وفيها لقاء المؤمن بربّه: لقاءً يقوّي من روحه ويشُدُّ من أزره. وبالاستعانة بالصبر يكون الله مع الصّابر، فكفى بهذه المعيّة نصرا وعزةً وإجابةً.

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤)

ومن الصّبر الذي على المسلم التحلّي به هو الصّبر حال لقاء العدوّ، فإنّ الله تعالى جعل النّصر مع الصبر، وهنالك قتلى سيَخِرُّون شهداء في معركة الحقّ قتلى أعزاء أحباء، فلا تحزنوا عليهم! ولا تقولوا أنَّ هؤلاء القتلى أمواتٌ كسائر الأموات! كلا بل هم أحياءٌ سعداء في عالمٍ غيرِ عالمنا. تلك حياةٌ لا تدركونها ولا تشعرون بها، لأنها ليست في عالمِ الحسّ الذي يُدرَك بالمشاعر. اللهم بلغنا منازل الشهداء!

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)

وحتى تتربّى النّفوس على العظائم فلابدّ لها من الامتحان والاختبار بشيء من أصناف البلاء: بلاءٍ نفسيّ كالخوف، أو بدنيّ كالجوع، أو ماليّ كالفقر، أو اجتماعيّ كفقد الأهل والأحبة، أو ابتلاءٍ في ما تشتهيه الأنفس كقلة الزرع والثمر. جمعت هذه الآية الكريمة بين تنبيه المؤمنين وبين تعزيتهم؛ فقد نبّههم الله تعالى أنّ كلّ ما يصيب المؤمن إنما هو ابتلاءٌ لإيمانه، وعزّاهم حين قال ﴿بِشَيء﴾ أي بشيءٍ يسير، وما على العبد إلا أن يَصبر مؤمنا محتسبا. وبعدها يسوق الله تعالى البشارة: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ مهما كان حزنك أيّها المؤمن! فهذه الجملة أعظم تسلية لك، إنّها بشارة من الله لكلِ صابرٍ بخيرٍ عظيم وافر، فاللهم اجعلنا من الصابرين!

الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)

المؤمنون أمام البلاء ليس لهم إلا التسليم المطلق: ينقادون لأمر الله تعالى، يتلقّون البلاء بالسكينة، وعند الصدمة الأولى لا يجزعون، بل يردّدون: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي: إنا ملكٌ لله يتصرّف فينا بما يشاء، وإنا إليه عائدون يوم القيامة. فهو الَّذي خلقنا وتفضّل علينا بكلّ النعم، وإليه مرجعنا وإليه نهاية أمرنا. ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: إنّها كلماتٌ عظيمة تذكّر المصاب بحقيقة أمره ونهاية مصيره. كلماتٌ تسكبُ في قلب المؤمن الرضى والسَّلوى، والثقة واليقين. قال سعيد بن جبير: "لم تُعط هذه الكلمات لنبيٍّ قبل نبينا، ولو عرَفها يعقوب، لما قال: يا أسفى على يوسف"!

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)

فإذا صبر المؤمن على الإبتلاء أتت إليه الغنائم: صلواتٌ ورحمةٌ وهدايةٌ. أمّا الصّلوات فهي صلاةٌ من الله أي ثناءُ الله تعالى على الصّابرين في الملأ الأعلى عند الملائكة، ثمّ رحمةٌ تتنزّل عليهم، ثمّ هدايةٌ تقودهم إلى كلّ خير وصلاحٍ وفلاح.

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)

الصّفا والمروة: جبلان قريبان من الكعبة، وكان في زمن الجاهلية عليهما صنمان من نحاس، يقال لهما: إسافٌ ونائلة، وكان المشركون إذا طافوا تمسّحوا بهما، فكان بعض المسلمين يتحرّجون من السعي بين الصفا والمروة، ظنا منهم أنّ السعي بينهما من شعائر أهل الجاهلية، فأنزل الله هذه الآية ليُزيل الحرَج الذي كان يتردّد في صدورهم. وهذا ثمرة التعليم الطويل الذي رسّخ في قلوبهم حبَّ التوحيد، وبُغضَ الشركِ ومظاهره وطقوسِه، فأزال الله عنهم حَيرتهم، وأخبرهم أنّ الصفا والمروة من المعالم التي يُتعبدُ اللهُ عندها، فلا حرج ولا إثم على الحاجّ أو المعتمر أن يسعى بينهما، وهذا من مناسك الحجّ والعمرة. وليأتِ المؤمنُ من الخير ما استطاع! فإن الله تعالى شاكرٌ لعمله هذا، عليمٌ بأعماله كلِّها، وكم لطف الله تعالى كبيرٌ حين يشكر الله عبده على أعماله الصّالحة! والله هو الذي هداه ووفقه إلى هذه الاعمال الصالحة. وإذا شكر الله عبده، أتاه الخير وأدركته الرحمة، وناله التوفيق، وأتاه العطاء بلا نهاية. ثمّ إذا كان الله يشكر لعبده فعل الخير، فماذا يصنع العبدُ المقصّر، ليوفّيَ الربَّ حقَّه من الشكر والحمد؟ فسبحان الله وبحمده. هكذا تخرسُ ألسنتنا وتقف أفئدتنا عاجزةً، وتكتشف عقولُنا قصورَها وقلةَ حيلتها، أمام هذا التعبير القرآني، والكرم الإلهي.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)

يعود السياق إلى الحديث عن أهل الكتاب، الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى، لذلك انتقل الكلام من بيان مشروعية الطواف بالصفا والمروة، إلى الحملة على أهل الكتاب الذين يكتمون الحقّ: فهم كتموا أمر الإسلام، وكتموا أمر النبوّة، وكتموا أمر تحويل القبلة، رُغم أنّهم يجدون كلّ ذلك لديهم في التوراة والانجيل. وهنا فائدة ولطيفة فأرعُوني أسماعكم! لقد جاء ذكر الصّفا والمروةِ في كتبهم المقدّسة، حيث سكَن إبراهيم -عليه السلام مكة- وفيها بنى الكعبة، وعند الصّفا اتّخذ المسكن، وعند المروة توجّه لذبح ابنه إسماعيل، فلم تزل الصّفا والمروة في بني إسماعيل قائمتين، من لدن إبراهيم -عليه السلام- إلى يومنا هذا، مع المنسك والاسم والرّسم. أمّا بنو إسرائيل فكتموا هذا وحرّفوه. ومن أراد التفصيل فليرجع إلى ما كتبه الدكتور الباحث عبد الحميد الفراهي في كتابه: الرأي الصّحيح فيمن هو الذّبيح! إذن إتيان آية الصّفا والمروة بين آيات تحويل القبلة، وبين آيات كتمان الحقّ، له مغزًى ولم تأتِ عبثًا. لتكون هذه الآية شاهدةً على كتمانٍ آخر من جملة ما كتمه أهل الكتابِ من الحقّ. والله المستعان. إلا أنّ حكم الآية هاهنا شاملٌ لكلّ من كتَم علما واجبا، فأولئك يصبُّ الله عليهم غضبه، ويطرُدُهم من رحمته، ويلعنُهم كلُّ لاعنٍ من الملائكة والمؤمنين.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)

الله يستثنى من عقوبته كل من يتوبُ، ويُصلحُ ما أفسده بكتم علمه، فيُظهرَ للناس ما جاء في الكتاب دون تحريف ولا إنقاص، فأولئك يتوب الله عليهم ويمحو ذنوبهم، وهو التواب الرحيم بعباده.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١)

يتوعّد الله تعالى كل كافرٍ عاش على الكفر ومات عليه، بأنَّ الله تعالى سيلعنه، وستلعنه الملائكةُ والنّاسُ جميعا بالطّرد من رحمة الله تعالى والإبعاد منها.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)

وستستمرّ اللعنة على الكافرين بالحق وسيخلّدون في النار، لا يخفّف عنهم عذابُ النّار ولا يؤخّرون من العذاب، كما كانوا يمهّلون في الدنيا. نسأل الله تعالى السلامة والعافية!

وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)

لما ذكر الله تعالى حال الكافرين الجاحدين لآيات الله، وما أعدَّ لهم من العذاب في الآخرة، ذكر هنا أعظم حقيقة، وهي حقيقة وحدانيّته، وتفرُّدِه بالعبادة، واستحقاقِه لها: فإلهكم الذي يستحقّ العبادة والخضوع، إلهٌ واحدٌ فردٌ صمدٌ. فمن عبدَ شيئا دونه أو معه، فعبادتُه باطلةٌ فاسدةٌ. معقبا ذلك باسمين هما من أعظم أسمائه: ﴿الرَّحمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كلّ شيء.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)

في هذه الآية الكريمة أورد الله تعالى ثمانيةَ أدلّة واضحة، تشهد بوحدانيّة الله تعالى وقدرته، تَهدي أصحاب العقول السليمة: الإبداع والإتقان في خلقِ السماوات بأجرامها ومجراتها، وفي الأرض وتضاريسها، وتعاقبِ الليل والنّهار بنظامٍ مُحكم، وفي السفنِ العملاقة التي تعبر البحار، حاملةً فيها شتى أصناف المنافع، ولا يحملها ولا يسيّرها إلا الله، وفي المطرِ الذي ينزله الله -سبحانه وتعالى- حيث يشاء فيحيي به الأرضَ القاحلة، فتُنبتُ زروعها ويَكثر خيرها، وينتشرُ فيها الأنعام والدواب، وفي اتجاهات الرّيح والسُّحب، وعملِها في الطقسِ ومسَارات السفن، وتلقيحِ النبات. إنّ في هذه الكائنات من عجائب الخلق، لعلاماتٌ واضحة لكل عاقل، على وجود الخالق - سبحانه وتعالى-.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)

ومع تلك الآيات الواضحات على وحدانيّة الله- سبحانه تعالى- فإنّ طائفةً من النّاس يبلغ بهم الجهل وإلغاء العقل إلى اتخاذ معبودات يجعلونها شركاء لله تعالى، فيعظّمونها ويحبّونها كحبِّ الله، إلا أنّ المؤمنين بالله تعالى حقَّ الإيمان، يجعلون حبَّ الله في صدورهم أعظمَ من كل حبّ، أعظمَ من حبِّ هؤلاء لمعبوداتهم. وهؤلاء المشركون الذين ظلموا أنفسهم، لو أبصروا جهنم، وسمعوا زفيرَها، ورأوا زبانيتَها لأيقنوا حينها أنّ تلك المعبودات التي عبدوها من دون الله لا تملك من أمرها شيئا، وأنّ القوةَ والمقدرةَ لله تعالى وحده، وأنَّ عذابه شديدٌ مؤلم.

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)

المتبوعون الذين عبدهم الناس من دون الله، أو دعاة الشرّ والفساد الّذين أطاعهم النّاس في الدنيا سيتبرؤون يوم القيامة من أتباعهم. وتخيّلوا صدمة هؤلاء الأتباع المقلّدين، حين يكتشفون ضعفَ المتبوعين وعجزَهم! وحين يكتشفون تفاهة رؤوس الضلالة ودعاة الشرّ والفساد، وقد أفنوا حياتهم في تعظيمهم أو طاعتهم أو تقليدهم أو عبادتهم من دون الله، فلا يكون لهؤلاء الأتباع المقلّدين حيلة بعد أن رأوا جهنّم تتظلى، وتقطّعت بينهم كلُّ صلة وعلاقة ورابطة.

وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)

يقول هؤلاء الأتباع المقلّدون: ليت لنا عودةٌ إلى الحياة الدنيا! فنتبرأ من هؤلاء الذين اتّبعناهم، كما تبرؤوا منّا في هذا اليوم العصيب. وهكذا يريهم الله تعالى جزاء تقليدِهم الأعمى، ليذوقوا بسببها مرَّ الندامة والحسرات، كما أراهم رأي العين عذاب الجحيم، وما هم بخارجين منها أبدا. اللهم أعذنا من عذاب الجحيم!

الدرس
السادس عشر
١٦٨ ١٧٧

بعد عرض النهاية المرة أهل الشرك والكفر، الخلود في النار، نادى الله -سبحانه وتعالى- البشرية جمعاء وأمرهم بأن يتمتّعوا بما أحله لهم من الطّيبات، ونهاهم عن اتباع وساوس الشيطان.

يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨)

الله تعالى ينادي البشرية كلّها، مؤمنَهم وكافرَهم، بنداء فيه منةٌ وإنعامٌ عليهم، يدعوهم إلى التّمتع بطيبات الحياة الدّنيا، من ثمار وحبوبٍ، وفواكه ولحوم وغير ذلك، ما دام اجتمع فيه أمران: الأمر الأول: "حلالًا" أي حلالًا في طريقة كسبه، ليس بغَصبٍ ولا سرقة، ولا محصَّلًا من وجه محرّم. والأمر الثاني: "طيّبًا" أي مستطابًا في نفسه، غير خبيثٍ ولا ضارٍّ بالأبدان والعقول، كالميتة والدم، والخنزير والخمر، والخبائثِ كلها. ثمَّ نهاهم الله تعالى عن اتباع مسالك الشيطان، والخطوات التي يمهّدها للبشر حتى يقعوا في شَرَكه. فهو ظاهر العداوة، ولا يريد ببني آدم إلا الإضرار والخسارة، وأن يكونوا من أصحاب السعير.

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩)

ومن رحمة الله تعالى بعباده، لم يكتفِ بالتحذير من خطوات الشيطان، حتى أوضح لنا كيفية عداوة الشيطان، وفنون شرّه وإفساده: فالشّيطان يزيّن لكم ما هو سيءٌ في ذاته، وفاحشٌ في نفسه من أنواع المعاصي القبيحة، مما يستفحشه من له عقل. بل الشيطان يأمرهم بما هو أشنعُ وأعظمُ من ذلك، حيث يأمرهم بأن يتقوّلوا ويفتروا على الله ما لا يعلمونه، إمَّا في الشرائع كتحريم ما أحلَّ الله، أو إباحة ما حرّم الله. وإما في العقائد كادّعاء الشريكِ والولدِ والصاحبةِ لله -سبحانه تعالى- وهذا هو الهلاك بعينه، والعياذ بالله.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠)

الدرس
السادس عشر

أولئك الذين اتبعوا خطوات الشيطان، وقالوا على الله بلا علم و[...]عوا ما أنزله الله تعالى من القرآن والسّنة! أعرضوا عن ذلك وقالوا: لا، بل نتّبعُ ما وجدنا عليه آباءنا، ونقلّدُ أسلافنا. عجبًا! أ[...]لا يعقلون شيئًا من أمور الدين؟ بل يتخبّطون تخبّط الأعمى، ولا يهتدون إلى الحقِّ والهدى.

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)

هؤلاء الكفّار المقلّدون لغيرهم في العقيدة، مثَلُهم في ضعف عقولهم كمثَل الرّاعي الذي يكلّم أغنامه، فهذه الأغنام تسمع الكلام، ولكنها لا تفهم ولا تعي ما يقال، فحال الكفار المقلّدين كحال البهيمة، بل أسوأ. فالكفار يعطّلون حواس الانتفاع كلّها، من سمعٍ ونطقٍ وبصرٍ، لا يريدون سماع الحقّ، ولا النطق بالحقّ، ولا رؤية الحقّ. ولهذا هم لا يعقلون الهدى والخير، الذي يدعوهم إليه الإسلام. يا أهل القرآن! إنّ مثل هذه الأمثال تزيدُ أهل الإيمان معرفةً بأحوال الكفار وطبيعتهم، وتحقّرُ إلى الكافر نفسَه إذا سمع هذا المثل، حيث صيّره كالبهيمة، فيضيقُ صدرهُ، فيكون زاجرا ورادعا له، عن أن يسلك طريقة التقليد الأعمى، لعلّه يباشر في توظيف حواسّه ليعرف الله.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)

يا من آمنتم بالله تعالى! كلُوا من ألوان الطّيبات التي أحللناها لكم! من ثمار وحبوب، وفواكهَ ولحوم وشتى أنواع الرزق الحلال. وهذه النعم العديدة لا تزداد طيبا وبركةً ودواما إلا بشكر المُنعم سبحانه. يا أهل الإيمان! إن كنتم تعبدون الله تعالى وحده حقًّا فكلوا من الطيّبات! واشكروا لله تعالى! يا أهل القرآن! لا يَفهم هذه الآيةَ حقَّ فهمها إلا من كان عارفا بتاريخ المذاهب والأديان قبل ظهور الإسلام، فإنّ المشركين وأهلَ الكتاب كانوا فِرقا وأصنافا. كلٌّ منهم من حرّم على نفسه أشياءا معيّنة من المأكولات أو الحيوانات. فمثلًا كان المذهب الشائع عند النصارى، أنّه لا يمكن التقرّب إلى الله تعالى إلا من خلال تعذيب

النفس، وحِرمانها من الطيبات، واحتقارِالجسد ولوازمه، واعتقادِ أنه لا حياة للروح إلا من خلال تعذيب الجسد. وحرّم اليهود على أنفسهم أشياءا، وحرّم المشركون على أنفسهم أشياءا. ثمّ تفضّل الله تعالى على هذه الأمة، بأنّ جعلها أمةً وسطا، ووهبها دستورا وسطا، يُعطِي الجسدَ حقَّه والروحَ حقَّها، فأحلّ الله تعالى لنا الطيبات وأمرنا بالشكر عليها، فلم نكن جِسمانيّين محضا كالأنعام، ولا روحانيين خُلّصا كالملائكة، وإنما جعلنا بشرا كُمّلًا بهذه الشريعة المعتدلة، فله الحمدُوالشكر والثناءُالحسن.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣)

الله تعالى وحده هو الذي يشرّع للنّاس الحلال و الحرام، لا العقل ولا الذّوق ولا العُرف. وهذا فرعٌ عن التوحيد، فمن يخلق ويرزق، هو الذي له الحقّ أن يُشرّع فيُحلل أو يُحرّم. وهكذا يرتبط التشريع بالعقيدة بلا فكاك. ومن فضل الله تعالى على عباده: وجّههم إلى الترفّع عن خبائث الأطعمة، والتي فيها ضررٌ على أبدانهم وصحتهم، فحرّمها عليهم كالميتة وهي البهيمة التي ماتت حتف أنفها، وموتُها بهذه الطريقة يؤدي إلى فساد جسمها وتعفّنها فتتلوّث بالأمراض. وحرّم الله تعالى الدم المسفوح: وهو الدم المهراق من البهيمة بعد ذبحها، فإن النفوس الطيبة تأباه مع تلوثه بالجراثيم. وكذلك لحم الخنزير: فإنّه حيوانٌ قذر لا يأكل إلا من القاذورات والنجاسات. والطبُّ الحديث يؤيّد خطر كل هذه المطعومات على الصّحة، إلا أنّ الشريعة الإسلاميّة سبقت العلم الحديث، وهي أولى بالاتباع وأجدرُ بالطاعة. وأعظم الأطعمة تحريما:البهيمة التي ذُكر عليها اسم غير الله حين ذبحها. فهذه كلّها محرماتٌ لا يحل تناولها إلا في حال واحدة، وهي حال الاضطرار: فمن اضطرّ إلى أكلها ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي لم يكن طالبا وراغبا فيها لذاتها،﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي لم يتجاوز قدر الحاجة، هنا لا إثم عليه. إنّ الله غفور رحيم، ومن رحمته أنّه أباح أكل هذه المحرمات وقت الضّرورة.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)

قال المفسّرون: هذه الآية نزلت في رؤساءِ اليهود وأحبارِهم. كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا والأموال، فلمّا بعث الله تعالى نبيه محمدا ﷺ، خافوا انقطاعَ تلك المنافع، فكتموا صفةَالنبي ﷺ وأمرَ دعوته التي جاءت في كتبهم فنزلت هذه الآية. والمعنى: إنّ الذين يُخفون ما أنزل الله تعالى في التوراة، مما يشهد بصدق النبي ﷺ ورسالته، ويأخذون في مقابل ذلك عِوَضا قليلًا من مالٍ أو رئاسةٍ أو جاهٍ، فأولئك ما يأكلون في بطونهم إلا ما يكون سببا لتعذيبهم بالنار، ولا يكلمهم الله يوم القيامة تكليم رحمةٍ ورضى كما يكلم المؤمنين، بل يكلّمهم بما يسوؤهم، ولا يطهّرُهم من دَنَسِهم، وينتظرهم عذابٌ شديدٌ مُوجعٌ. والآية وإن نزلت في أهل الكتاب، لكنها عامةٌ في حقّ كل من كتم علما يجب إظهاره، إذ العبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥)

أولئك الذين كتموا العلم هم الذين اختاروا في الدّنيا الضلالة على الهدى، فاستحقوا في الآخرة العذاب بدل الغفران، والجزاءُ من جنس العمل. فيا للعجب! ما أدومهم على عمل المعاصي التي تؤدي بهم إلى النار حتى لكأنهم بإصرارهم هذا يجلبون النار إلى أنفسهم جلبا والعياذ بالله!

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)

وهذا العذابُ الأليم الذي استحقّه أهل الكتاب، هو بسبب طريقة تعاملهم مع الكتُب التي أنزلها الله والتي بيّنت الحقَّ، لكنّهم اختلفوا في تأويل وتحريف كتبهم، فأظهروا منها ما يناسبهم، وأخفَوا منها ما يخالف أهواءهم، فأصبحوا في خلافٍ بعيدٍ عن الحقّ والصواب.

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

هذه الآية الكريمة من أعجبِ الآيات وأجمعِ الآيات في تحديد معنى البرّ من الجانب الواقعيّ. آيةٌ تصحّح لدينا مفهوم الخير والبرّ: فالبرّ لا يرتبط بالمظاهر والصّور والأشكال، وإنّما يرتبط بالحقائق، ولبّ الأمور، وروح التكاليف. آيةٌ ترشدنا إلى أن البرّ أنواعٌ ثلاثة، جامعةٌ لكل خير: برٌّ في العقيدة وبرٌّ في العمل وبرٌّ في الخُلق. آيةٌ تعلّمنا أنّ البرَّ ليس في الأمور الجدليّة والنقاشات العقيمة التي لا تثري في الحقيقة أثرا،ولا ترفع في الواقع بناءًا. آيةٌ ترشدنا إلى أنّ البرّ ليس في المظاهر والشّكليات، كأن تتوجّه إلى المشرق أو المغرب في صلاةٍ مظهريّةٍ جوفاء كلا. البرّ يبدأ من هنا.ابدأ بإصلاح قلبك أولًا! أصلحه! وطهّره ليرى الله فيؤمن به حقًّا! ويؤمن بالغيب صدقا. فما العمل إلا مَدَدُ العقيدة، وما الأمل إلا ثمرة التوحيد. فإذا صَلَح القلب وآمن بالله صَلَحت الأعمال، وإذا صَلَح القلب وآمن بالله كان المرء صادقا في قوله وفعله: يفعل الخير والبرّ من دافعٍ داخلي، لا رياءا ولا سمعةً،ولا رغبةً في ثناء الناس، لأنّه ينتظر ما عند الله تعالى في الآخرة، إذا صلح القلب وآمن بالله انطلق المرء ليطرق كل أبواب الخير وشُعب البرّ من بذل النفسِ والمالِ ابتغاء مرضاة الله، وإدخال السّرور على خلق الله. بعد هذا التمهيد المهم، نأتي إلى تفسير هذه الآية ومعناها: لقد أكثر الناسُ الكلام في أمر القبلة، كأنّ الخير والبرّ محصورين فيها. فليس استقبالَ جهةٍ معينة في المشرق أو المغرب هو قِوام الدين، ولكنّ مِلاك الخير والبرّ أولا: تصحيح العقيدة من خلال الإيمان بالله وباليومِ الآخر، والملائكةِ، وبالكتب المنزلة على الأنبياء، والإيمان بالرّسل. والأمرُ الثاني هو: بذل المال عن رغبةٍ وطيبِ نفس للفقراء من الأقارب واليتامى والمحتاجين، وللمسافرين الذين انقطع بهم الطريق، وللسائلين الذين ألجأتهم الحاجة إلى السؤال، ولغرض عتق العبيد وتحرير رقابهم من الرّق والعبوديّة. والأمر الثالث: المحافظة على الصلاة المكتوبة. والأمر الرابع: إخراج الزكاة المفروضة. والأمر الخامس: الوفاء بالعهد في النفس والمال. والأمر السادس: الصّبر في مختلف المواطن: في الفقر وفي المرض، وعند شدّة القتال. وهكذا آيةٌ واحدة جمعت بين برّ العقيدة وبرّ العمل وبرّ الخُلق، وربطت بين الجميع برباطٍ واحدٍ لا ينفصم. فالبرّ كيانٌ واحدٌ عقيدةً وعملًا وخلقًا. فالذين يجمعون بين هذه العناصر كلّها، هم الذين صدَقوا في إيمانهم، وأولئك الذين حقّقوا مفهوم التقوى. جعلني الله وإياكم من المتّقين!

الدرس السابع عشر

١٧٨ ١٨٦

بعد الحديث عن البرّ الجامع لألوان الخير، شرع الله تعالى في بيان بعض الأحكام العمليّة الجليلة التي لا يَستغني عنها الناس في حياتهم، وبدأ بالحديث عن حفظ الدماء، لما لها من منزلةٍ ذات شأن في إصلاح دنيا النّاس.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)

تتضمّن هذه الآية الكريمة جانبا من التنظيمات الأساسيّة للمجتمع المسلم، الذي كان ينشأ في المدينة المنورة نشأته الأولى. ولمّا كان حفظ النفوس والأرواح من أهم مقاصد الشريعة بعد حفظ الدين، جاءت هذه الآية لتنظّم التشريع الجنائي وتوضّح بعض أحكامه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾: يمتنّ الله تعالى على عباده المؤمنين بأنّه فَرض عليهم المساواة في القتلى: فالقاتل المتعمّد يُقتل على الصفة التي قتَل عليها المقتول إقامةً للعدل والقِسط بين العباد، دون بغيٍ أو عدوان. واقتصُّوا من الجاني فقط! فإذا قتل الحرُّ الحرَّ فاقتلوه به! وإذا قتل العبدُ العبدَ فاقتلوه به! وكذلك الأنثى إذا قتلت الأنثى، ولا تعتدوا فتقتلوا غير الجاني! فإنَّ قتل غيرِ الجاني ليس بقصاصٍ، بل هو ظلمٌ واعتداء.

ولأن جرائم القتل تمسُّ أخصَّ شيء في الإنسان وهي روحه، أعطت الشريعة الإسلامية لأولياء المقتول حقّ القصاص للتشفّي من الجاني، كما جعلت لهم الحقّ في العفو عن تلك العقوبة، أو الصلح عليها مقابل المال وهو ما يسمّى بالدّية. فإن عفا وليُّ المقتول عن القاتل مقابل أن يأخذ منه الدية، فعليه المطالبة بالدّية بالمعروف لا بالمَنّ والأذى والإرهاق، وكذلك على القاتل أداء الدية بإحسان، من غير مماطلة ولا تسويف.

وليعلم المؤمنون أنّ ما شرعه الله تعالى لهم من العفو وأَخْذ الدية هو تخفيفٌ من الله عليهم، ورحمةٌ بهذه الأمة. ففي تشريع الدّية تخفيفٌ على القاتل ونفعٌ لأولياء المقتول، فمن اعتدى على القاتل بعد العفو وقبول الدية، فله عذاب أليم من الله تعالى في الآخرة.

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)

نداءٌ إلى أهل العقول: لكم في تشريع القصاص حياةٌ وأيُّ حياة! فالقصاص في الإسلام ليس للانتقام ولا لإرواء الأحقاد، إنّما هو أجلُّ من ذلك وأسمى: إنه للحياة وفي سبيل الحياة. حياةٌ للفرد وحياةٌ للجماعة وحياةٌ للمجتمع. فالرّاغب في القتل إذا عَلِم أنّه إن قتل نفسا سيُقتل، سيرتدع وينزجر عن القتل، وبهذا يَحفظ حياته وحياة من أراد قتله، وبذلك تقلّ الجرائم، وتُصان الدماء، وتحفظ حياة الناس. لعلكم تنزجرون وتتقون الله تعالى بالانقيادِ لشرعه والعملِ بأمره.

ونلاحظ تكرار ذكر التقوى في سورة البقرة تعقيبا على الإجراءات الجنائية، والتنظيمات الاجتماعيّة، والتكاليف التعبديّة سواءً بسواء، لتكون كلّ تلك التشريعات مشدودةً برباطٍ واحد، وهو رباط التقوى.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)

يرشد الله تعالى الناس إلى ما ينبغي أن تكون عليه الوصيّة. وليُبطل ما كان من عوائد الجاهليّة من وصايا جائرة، فأخبر الله تعالى بأنّه فرضَ عليكم إذا أشرف أحدكم على الموت، وقد ترك مالًا كثيرا، وجب عليه الإيصاء للوالدين والأقربين على أن تكون الوصيّة بالمعروف أي بالعدل: بأن لا يزيد على الثلث، وألا يوصي للأغنياء ويترك الفقراء، منعًا للتحاسد والتعادي، حقًّا مقررا على أهل التقوى. وهذا الحكم كان في أول الأمر ثمّ نُسخ عندما نزلت آيات المواريث، وقد بيَّنت مَن يرث الميّت ومقدار ما يرث.

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)

وإذا صدرت الوصّية عن الموصي، كانت حقا واجبا لا يجوز تغييره ولا تبديله. فمن بدّل هذا الحقّ، فغيَّر الوصية العادلة بزيادةٍ أو نقصٍ أو منعٍ بعد علمه بالوصية، فقد ارتكب ذنبا عظيما. يكون إثم ذلك التبديل على المغيّرين لا على الموصي. إن الله سميع لأقوال عبيده، عليمٌ بأفعالهم.

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢)

أمّا من علم من الموصِي ميلًا عن الحقّ خطًا، أو ميلًا عن الحقّ عمدا، فقام بالصُّلح بين الموصِي والموصَى له، يردّ الوصيةِ إلى العدلِ، والمقدارِ المحدّد لها شرعًا، حينها لا ذنب عليه بهذا التبديل، بل هو مأجورٌ على إصلاحه، إن الله واسع المغفرة والرحمة، لمن قصد بعمله الإصلاح.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)

تناولت سورة البقرة جانبا كبيرا من الأحكام التشريعيّة، ومن أهمّها: فريضة الصّيام الذي هو أحد أركان الإسلام. وقد فُرض الصّيام على المسلمين في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة، بعد تحويل القبلة بشهرٍ تقريبا.

وفي الآية ناداهم الله تعالى بلفظ الإيمان ليحرّك فيهم مشاعر الطاعة: يا أيّها الذين آمنوا! فُرض عليكم صيام شهر رمضان كما فُرض على الأمم السّابقة قبلكم. فالصّوم فريضةٌ قديمةٌ على المؤمنين بالله، في كلّ دين.

وذكر الله تعالى الغاية من الأمر بالصّيام وهي: إعداد قلوبكم للتقوى. والتقوى هي التي تحرس هذه القلوب من إفساد الصّوم بالمعصية. وهذه لفتة يجب التنبّه إليها: هذا القرآن جعله الله تعالى هدايةً للمتّقين، كما قال تعالى في أول سورة البقرة: ﴿هدًى للمتّقين﴾، ثمّ كرّر مفهوم التقوى في كلّ سورة البقرة، وقد مرّ معنا في التعقيب على القِصاص: جاءت الإشارة للتقوى ﴿لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ ﴾، وفي التعقيب على الوصية، جاءت الإشارة للتقوى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾، وفي التعقيب على الصيام، جاءت الإشارة للتقوى: ﴿لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾، ثم ترد نفس الإشارة بعد الحديث عن الاعتكاف: ﴿لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾، ونجد مفهوم التقوى حاضرا في آيات القتال، وآيات الحج، وآيات الطلاق، وآيات الإنفاق، وآيات الرّبا، وآيات الدّين.

وهذا اطرادٌ يوجّه نظرنا إلى حقيقة هذا الدين، فهو وحدةٌ لا تتجزأ: تنظيماته الاجتماعية، قواعده التشريعية، شعائره التعبّدية، معاملاته الماليّة كلها منبثقة من العقيدة في الله، وكلها نابعةٌ من التصوّر الكلّي، الذي تنشئه هذه العقيدة، وكلها مشدودة برباطٍ واحدٍ، وكلُّها تنتهي إلى غاية واحدة هي التقوى: "الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل".

أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)

من باب التخفيف والرّحمة: جعل الله تعالى الصيام الواجب أيامُه معدودات، وهي أيامٌ قلائل يذهب بعدها التعب ويبقى الأجر. فلم يُفرَض صيامُ السّنة كلّها وإنّما هو شهرٌ واحد. وكذلك من باب التخفيف والرّحمة: جعلَ الله تعالى صيام رمضان واجبا على الصّحيح المقيم القادر، أمّا المريضُ والمسافرُ فلا حرج عليهما في الفطر، لأن المرض والسفر مظنّة المشقة، والمشقةُ تجلب التيسير، لكن عليهما القضاء بقدر ما أفطرا من الأيام في وقتٍ آخر.

ومن باب التخفيف والرّحمة أيضا: الذين يستطيعون صيام رمضان، لكن مع حصول مشقةٍ شديدة، وذلك مثل الشّيوخ الضعفاء والمرضى الذين لا يرجى برء أمراضهم، يجوز لهم أن يُفطروا، وتجب عليهم الفدية ولا يجب عليهم القضاء، لأن هذه الأعذار لا يرجى زوالها. ومقدار الفدية: إطعام مسكين لكل يوم من القوت الغالب في البلد، فمن تطوّع وأطعم أكثر من مسكينٍ لليوم الواحد، فهو خيرٌ له وأحسن. واعلموا أنّ الصَّومَ خيرٌ لكم من الفطر! إن كنتم تعلمون ما في الصّوم من أجرٍ وفضيلة وغنيمة.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)

في هذه الآية بيّن الله تعالى وقت الصيام، فالأيام المعدودات التي فُرِضت على المؤمنين، هي أيام شهر رمضان. وهو شهرٌ مباركٌ ميمون، ابتدأ فيه نزول القرآن الكريم، على النبي ﷺ، وذلك في ليلة القدر. أنزله الله تعالى هدايةً للناس إلى الرّشد بإرشاداته وهداياته الواضحة، التي تفرّق بين الحق وبين الباطل، فمن أدرك منكم هذا الشهر، وهو صحيحٌ مقيمٌ قادرٌ، وجب عليه الصّيام، أمّا المعذور بسبب مرضٍ أو سفرٍ، فله أن يفطر وعليه قضاء تلك الأيام التي أفطرها، فيصوم مكانها أياما أخر. يريد الله لكم بهذا الترخيص، التيسيرَ عليكم لا التعسير، وأمركم بالقضاء لأنه يريد أن تُكملوا عدّة شهر رمضان كلّه. ولتكبروا الله بعد انتهاء شهر رمضان ويوم العيد على أن وفّقكم لصوم رمضان وأعانكم على إكماله، ولكي تشكروا الله تعالى على فضله وإحسانه.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

وإذا سألك يا محمد !عبادي عني فإني قريبٌ منهم: أسمع دعاءهم وأرى تضرُّعهم وأعلم حالهم. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي ﴾: أضاف العباد إلى نفسه: تشريفٌ ما بعده تشريف! ثمّ كان الردُّ المباشر منه: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. لم يقل: فقل لهم إني قريب! أتى الجواب منه بلا واسطة، وتولى الله بذاته الجواب على عباده: أجيبُ دعوةَ من دعاني، إذا كان عن صدقِ نفسٍ وخشوعِ قلب. فلا تحتاجون إلى رفع الأصوات، ولا إلى الوسطاء، لماذا؟ ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ وهل القريب يحتاجُ إلى الوسيط؟ ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ الطريق إليه سالك، فاسلكه بدعائك! ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾

هذه العبارة أيُّ جمالٍ فيها؟ وأيُّ نور يعلوها؟ وأي سكينة تمنحُها؟ وأيّ رحمةٍ تتغشّاها؟ وأي راحةٍ تكنفُها؟ وأي طمأنينةٍ تبعثها؟ وأي قربٍ يصحبُها؟ ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾: مع هذا القُرب الإلهي، تتلاشى عند العبد مشقةُ الصوم، ومشقةُ القيام، ومشقةُ العبادة، ومشقةُ كلّ التكاليف. ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾: ما أبعد السّماء! وما أقرب الله! فهنا بابٌ لا يغلق ودعاءٌ لا يُردّ. فأقبل واقترب! فمن ذاق طعم القُرب، لم يأنسْ بالبُعد.

إنها آيةٌ عجيبة! آيةٌ تبعثُ في قلبِ المؤمن الأمانَ الدّائم، والقُربَ الملازم، آيةٌ تقرّب المسافاتِ الطويلة، وتقرّب الأماني البعيدة، وتبدّد الأحزانَ الدفينة. وفي ظلّ هذا الدفء والأمان والودّ والقُرب، يدعو الله عباده إلى الاستجابة له والإيمان به: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ أي: فلينقادوا لي ولأوامري! وليلبُّوا دعوتي لهم بالإيمان! أجيبُ لهم دعوتهم بما طلبوا ليكونوا من السعداء الراشدين، في الدّنيا والآخرة.

فالدّاعي هو الفائز دوما: فائزٌ حين يُطيع وفائزٌ حين يُكافأ. إلهنا ! تقبّل منا دعائنا! واستجب لنا! يا قريب يا مجيب!

الدرس الثامن عشر
١٩٥_١٨٧

أعادت سورة البقرة إلى الحديث عن الصيام، وعن مظاهر رحمة الله بعباده فيما شرع لهم، وأردف ذلك بالنهي عن أكل الحرام، ثم انتقلت الآيات إلى الحديث عن الأهلة، وبعدها عن قواعد القتال في سبيل الله.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)

من لطف الله تعالى وحكمته أنّه يشرع من الأحكام ما يشاء، ثم ينسخها بأحكامٍ أنسب، فيكون الناس بالتشريع الأول قد تربَّوا وتمرنُوا على العمل، فيأتي الحكمُ الجديد وهم على كامل الاستعداد للعمل به. ومن ذلك بعض أحكام الصّيام. فقد كان صيام رمضان أوّل ما فُرض، لا يحلّ للرّجل جماع امرأته طيلة شهر رمضان، لا نهارا ولا ليلًا. أمّا الطعام والشّراب، فكان يُباح له بعد المغرب إلى أن ينام، فإذا استيقظ بعد نومه فلا يباح له الأكل والشرب، حتى وإن كان الوقت ليلًا، بل وجب عليه الإمساك إلى وقت المغرب من اليوم التالي. فالفطر إنما يُباح له من وقت المغرب إلى وقت نومه فقط.

يقول البراء -رضي الله عنه-: أنّ قيسَ بنَ صِرْمة -رضي الله عنه- كان صائما، فلما حضر وقت الإفطار نام، واستيقظ بعد ذلك ولم يأكل شيئا وأصبح صائما، فلما انتصف النهار غُشي عليه وسَقط، فذُكر ذلك للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية بتمامها، فأباح الله لهم أن يأكلوا ويشربوا ويأتوا نساءهم في جميع أوقات الليل. يقول البراء بن عازب: "ففرح الصحابة -رضي الله عنهم- بذلك فرحا شديدا".

فالحمد لله. وتفسير الآية: أبيح لكم أيها الصائمون! جِماع نسائكم في ليالي الصيام، فهنَّ سكنٌ وسترٌ لكم، وأنتم سكنٌ وسترٌ لهنّ، لا يَستغني بعضكم عن بعض. علم الله أنكم لا تصبرون عن معاشرة النّساء، وكنتم تخونون أنفسكم بفعل ما نهاكم عنه، فرحمكم الله تعالى وتاب عليكم لما فعلتموه قبل النسخ وخفّف عنكم، فالآن لا تتحرّجوا! فقد أبيح لكم جماع نسائكم في ليالي رمضان، واطلبوا بنكاحهنّ الولد وليس قضاء الشهوة فقط! وأبيح لكم كذلك الطعام والشراب طوال الليل، حتى يظهر لكم الفجر متميزا من ظلام الليل، ثم أكملوا الصيام من الفجر الصّادق حتَّى مغيب الشمس! واجتنبوا جماع نسائكم ليلًا أو نهارا إن كنتم معتكفين في المساجد! تلك أوامرُ الله تعالى وأحكامُه التي شرعها لكم فلا تخالفوها! بمثل هذا البيانِ الواضحِ، يبيّن الله للناس آياته وأحكامه وهداياته، في سائر أمورهم، لكي يتّقوا الله تعالى بفعلِ الأوامر وتركِ النّواهي.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)

وبعد انتهاء الحديث عن أحكام الصيام، أردف ذلك بالنهي عن أكل المال الحرام لأنّه يؤدي إلى عدم قبول العبادات من صيامٍ ودعاءٍ واعتكافٍ وغير ذلك، فيا أيّها المؤمنون! لا تأخذوا أموال بعضكم بالباطل! وبدون وجه حقّ بأي صورةٍ كان، مثل السرقة والغَصْب والغشّ، ولا تُلقوا بأموالكم إلى الحكّام، كدفع الرّشوة لهم! حتى يَحكُموا لكم بما هو حرام، فتنتزعوا بذلك قِسطا من أموال إخوانكم بالظلم والإثم. والعجب كيف يهنأ المسلم وهو يعتدي على مالِ أخيه المسلم بالإثم والبهتانِ والرشوة وشهادةِ الزّور ؟! ثمّ يأكله ويُطعم زوجته وأولاده وهو يعلم أنه مالٌ سحتٌ حرامٌ ؟! والذي يأكله إنّما هو نارٌ يُدخله في بطنه.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)

بعد أن استقرَّ المؤمنون في المدينة المنورة، بدؤوا بالسؤال عن مسائل شتى، تهمّهم في دينهم ودنياهم، ترِد في مجتمعٍ جديدٍ متطلعٍ إلى المعرفة، وهنا سؤالٌ من ضمن الأسئلة: يسألونك يا محمد عن الهلال! لماذا يبدو دقيقًا مثل الخيط، ثم يكبُر ويستدير، ثم ينقُصُ ويدِقُّ، حتى يعود كما كان؟ فأجِبهم يا محمّد بالجانب الذي ينفعهم! وقل لهم!: إنها أوقاتٌ لعباداتكم تعرفون بها مواقيت الصّوم، وتمامَ الحَوْل في الزكاة، وأشهرَ الحج ونحو ذلك. ثمّ أبطل القرآن عادةً جاهليةً كانت منتشرة في الحجّ عند الأنصار: كانوا إذا أحرموا بالحج، لم يدخلوا البيوت من الأبواب، وإنّما دخلوها من ظهورها. وكانوا يظنّون أنّ هذا التصرّف المتكلّف من اعمال البرّ، فأتى التوجيه بأنّه ليس البرُّ والخيرُ أن تدخلوا المنازل من ظهورها، كما كنتم تفعلون في الجاهلية. أيُّ معنى من معاني البرّ في هذا الفعل؟ ولكن البرَّ الحقيقي هو في تقوى الله. البرُّ الحقيقي هو في الابتعاد عن المعاصي، والتحلّي بالفضائل، والمسارعة إلى أعمال الخير، أمّا طريقة دخول البيوت، فادخلوها من الأبواب كعادة الناس! واتقوا الله لتكونوا من أهل الصّلاح والفلاح!

ونلاحظ هنا أنّ سؤال الصّحابة كان عن سبب أطوار الهلال، لكن أتى الجواب مختصرا محدَّدا بما ينبغي أن يُسأل عنه في مثل هذه الأمور وبما ينتفع به السائلون. ركّز الجواب على واقعهم العملي، لا مجرد العلم النظري: جاء الجواب عن وظيفة الأهلّة في حياتهم، وليس عن الدورة الفلكية للقمر وكيف تتمّ. فالقرآن كتابُ هداية نزل لمهمة وهي: تكوين الفرد المسلم في ذاته وسلوكه ومشاعره وروابطه، وبناء وجوده وضميره وشخصيته على أسسٍ صحيحة، ثمّ ربطه بخالقه. والقرآن الكريم وإن تحدّث عن قضايا كونيّة وفلكيّة، إلا أنّه حديثٌ ضمن السّياق، مرتبطٌ بإثباتِ الخالق وبيان الحكمة في خلقه، وليس القرآن كتاب علومٍ أو فلكٍ أو فضاء. فخذ من هذه العلوم ما ينفعك! أمّا التوسّع فيما لا ينفع، هو كحال الشخص الذي يأتي البيوت من ظهورها كفعل الجاهليين. ولذا كان الجواب على طريقة أسلوب الحكيم.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)

هذه الآية وما بعدها من أوائل ما نزلَ في شأن قتال مشركي مكة، الذين ظلموا المسلمين وأخرجوهم من مكة المكرمة، وصادروا أموالهم وحقوقهم. وهي متضمنةٌ للإذن لرسول الله ﷺ والمؤمنين بقتالِ من يقاتلهم والكفِّ عمن يكفُّ عنهم. فالقتال في الإسلام ليس من أجل الغنائم، أو بسط السيطرة، أو سرقة مقدّرات الشعوب، بل من أجل إقامةِ العدل ورفع الظّلم، والدّفاع عن الحقّ وأهله وفق شرع الله ومنهجه، وبهذا تسعدُ الإنسانية، وتنال ما تصبو إليه من عزّةٍ وفلاحٍ وأمانٍ وسلام. والآيات هنا ذكرت ستّ قواعد من قواعد القتال في سبيل الله.

نبدأ *بالقاعدة الأولى:* مشروعيّة القتال لصدّ العدوان لكن بدون اعتداء: يا أيّها المسلمون! قاتلوا لإعلاء دين الله من قاتلكم من الكفار ليصدُّوكم عن دين الله! ولكن لا تعتدوا في القتال! بأيّ نوعٍ من الاعتداء: فلا تقتلوا النّساء ولا الصّغار ولا الحيوان، ولا العجزة ولا الشيوخ ولا الأطفال ولا الرّهبان، ولا تعتدوا بالتمثيل بجثث القتلى ونحو ذلك! فإنّ الله لا يحبّ المتجاوزين لحدوده.

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)

القاعدة الثانية في القتال: من اعتدى عليكم يجوز قتاله في أيّ مكان، اقتلوهم حيث وجدتموهم! وأخرجوهم من المكان الّذي أخرجوكم منه وهو مكة! ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾: أي فتنة المؤمن بصدّه عن دينه أشدُّ وأعظم من قتله.

والقاعدة الثالثة: المسجد الحرام له حالةٌ خاصّة، فلا يبدأ المسلمون القتالَ فيه تعظيمًا له، فإن بدأ العدوُّ بقتالكم في المسجد الحرام، فلكم حينئذٍ قتالهم لأنهم انتهكوا حرمته، والبادي بالشرّ أظلم. وهذا جزاءُ من كفر بالله وظلم غيره.

فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢)

فإن انتهوا عن قتالكم فكفّوا عنهم! وإن انتهوا عن كفرهم فإن الله يغفر لمن تاب وأناب.

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)

القاعدة الرابعة في القتال: أنّ غاية القتال المشروع شيئان: منع الفتنة في الدين وإقرار السّلم وبثّ الأمن، قاتلوا المحاربين الذين اعتدوا عليكم! واستمروا في قتالهم حتى تَكسروا شوكتهم! فلا تبقى لهم قوةٌ تمكنهم من أن يفتِنوكم عن دينكم. استمروا في قتالهم حتى يكون الدين خالصًا لله! وحتى يأمن المسلم في الحرم فيُظهر دينه بلا خوف. وقد كان الكفار بمكة في أمنٍ وطمأنينة يقيمون الباطل ويعبدون الأصنام، بينما المسلمون مَطرُ□□دون منها، ومن بقي في مكة فهو خائفٌ، لا يستطيع إظهار دينه ولا الجهر به. فإن انتهوا عن قتالكم فكفّوا عن قتالهم! فإنه لا قتال ولا عدوان إلا على الظالمين والصّادين عن سبيل الله.

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)

القاعدة الخامسة في القتال: لا قتال في الشّهر الحرام، ويستثنى من ذلك دفع العدوان فيه. ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾: أي إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام معاملةً بالمثل! والحرُمات التي يجب المحافظة عليها، إن اعتدى عليها أحدٌ، وجب فيها القصاص والأخذ بالمثل. فمن اعتدى عليكم بحربٍ أو غيره، فعاملوه بمثل فعله! ولا تتجاوزوا حدَّ المماثلة! واتقوا الله ولا تظلموا! ولا تعتدوا! واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والتأييد، في الدنيا والآخرة!

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)

القاعدة السادسة في القتال: أن القتال في سبيل الله يتطلب التضحية بالنفس وبالمال. فيجب الإنفاق بالمال، لأن الإنفاق في الحروب وسيلة النصر والغلبة، وترك الإنفاق مَهلكة للأمة ومَضيعة للجماعة. أنفقوا في الجهاد في سبيل الله وفي سائر وجوه القربات! ولا تُلقوا أنفسَكم بأيديكم إلى الهلاك بترك الجهاد وعدم الإنفاق فيه! أو الدخول في الحرب بغير بصيرةٍ ولا استعداد. وعليكم بالإحسان في كل شؤونكم! في عباداتكم ومعاملاتكم وأخلاقكم، حتى يحبكم الله تعالى وتكونوا من أوليائه المقربين. لما خرج المسلمون إلى القسطنطينية لغزو الرّوم، حمل رجلٌ على العدو حتى دخل في صفّ الروم، فقال الناس: مه مه! ألقى بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصاري -رضي الله عنه-: إنّكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار: فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيمَ في أموالنا ونصلحَها، وندعَ الجهاد في سبيل الله.

إذن الآية الكريمة تأمر المؤمنين ببذل المال في الجهاد بصفةٍ خاصة، إضافةً إلى بذله في كلّ مواطن الخير بصفة عامة، لأن عدم البذل يؤدي إلى ضعف الأمة □□اضمحلالها. اللهم أعز الاسلام والمسلمين! وأبرم لهذه الأمة أمرا رشدا!

الدرس التاسع عشر
١٩٦_٢٠٣

إذا كان القتال في سبيل الله جهادٌ لحماية الأمة الإسلامية من الخارج، فالحجّ إلى بيت الله الحرام هو جهادٌ لحماية الأمة من الداخل عن طريق تجميع أبنائها على اختلاف أوطانهم وثقافاتهم، في مكانٍ واحد ومنسك واحد.

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ

أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)

سبقت معنا آية تبيّن حِكمة الأهلة وأنها مواقيتُ لعبادة المسلمين، يعرفون بها مواعيد الصّوم، وتَمامَ الحَوْل في الزكاة، وأشهرَ الحج. وهنا عاد الكلام إلى أحكام الحج وبعض آدابه.

فُرض الحجُّ سنة ستٍّ من الهجرة، يؤدّيه المسلمُ مرةً في العمُر لمن استطاع إليه سبيلًا. والحجُّ أكبر مؤتمر إسلاميّ، وأكبرُ تجمّعٍ بشريٍّ دينيٍّ منظّمٍ في العالم على الإطلاق. مؤتمرٌ سنويٌّ يُعقد كلّ عام في مكة المكرمة، محطِّ أنظار المسلمين، يأتي إليها الناس من كل فجٍّ عميق، متجرّدين عن الدنيا ومظاهرها، فيتذكر الناس فيها الآخرةَ وموقفَ الحشر، وهو بحقٍّ من مفاخر الإسلام.

فيا أيّها المسلمون! أدّوا الحجّ والعمرة تامَّين بأركانهما وشروطهما! قاصِدِين بعمَلكم هذا رضا الله تعالى، ليس للرياء ولا لأغراض الدنيا.

وفي هذه الآية ثلاث مسائل من أحكام الحجّ نسردها باختصار، ومن أراد التوسّع فعليه بكتب الفقه!

المسألة الأولى: إن أحرمتم بالحجّ أو العمرة لكن أحصرتم ومُنعتم من إتمامه بسبب مرضٍ أو عدوٍ أو أيّ ظرف طارئ، وأردتم التحلّل فعليكم أن تذبحوا الهدي! إمّا ذبح إبل أو بقر أو غنم. ولا تتحللوا من إحرامكم بالحلق أو التقصير حتى يصل الهديُ إلى المكان الذي يحلُّ ذبحه فيه وهو الحرم!

المسألة الثانية: من محظورات الإحرام: قصّ الشعر. فلا يجوز للمحرم قصّ شعره، لكن لو احتاج إلى حلق رأسه بسبب مرض يتضرّر به أو أذًى من رأسه، جاز له حلق رأسه، لكن عليه الفدية، وهي: إما صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين من مساكين الحرم، أو ذبح شاةٍ يُوزّع لحمها على فقراء الحرم.

المسألة الثالثة: أنساك الحج ثلاثة: إفرادٌ وقرانٌ وتمتّع. والتمتّع هو أن يُحرم في أشهر الحج بالعمرة ثم يَحلَّ منها ويُحرم بالحجّ في نفس العام. فإذا اختار المسلم أن يحجّ حجّ التمتّع: وجب عليه ذبح الهدي، فمن لم يجد ثمن الهدي فعليه صيام عشرةِ أيام! ثلاثةٍ حين يُحرم بالحجّ وسبعةٍ إذا رجع إلى بلده ليكون مجموع الأيام: صيام عشرة أيام كاملة تجزئ عن ذبح الهدي. وهذا الحكم خاصٌ لغير المقيمين في مكةَ وما حولها. أما سكّان مكة فلا يجب عليهم شيءٌ.

وخُتمت الآية بالوصيّة بتقوى الله تعالى: واعلموا أن عقاب الله شديدٌ لمن خالف أوامره!

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)

بيّن الله تعالى في الآية وقت الحج وهو: شهرُ شوال وذو القعدة وعشرُ ليال من شهر ذي الحجة. فلا يُحرم بالحجّ إلا فيها، فمن ألزم نفسه الحجَّ خلال هذه المدّة، فهناك بعض الممنوعات التي يجب عليه تجنّبها بسبب الإحرام، ومنها: الرّفَث وهو الجماعُ ومقدّماتُه، ويتأكّد في حقّه ترك الفسوق، وهو الخروج عن طاعة الله بارتكاب المعاصي، لعظم الزمان والمكان، كما يحرم عليه الجدال والخصام مع النّاس، والقلبُ إذا انشغل بتعظيم الإله، ضاق وقته عن الجدال والمراء.

ثم قال: ﴿وَمَا تَفعَلُوا مِن خَيرٍ يَعلَمهُ اللَّهُ﴾ إنها حقيقةٌ تَسكبُ في قلبك الطمأنينةَ والرّضا عندما تعلم أنّ كل عملٍ صالحٍ ستفعله لا يخفى على الله، وأنك لابدّ مأجورٌ عليه، مجازى به. هذه الحقيقةُ هي ما تجعل لحياة المسلم معنى وقيمة، فلا ألمهُ هباء، ولا عملُه ضَياع، ولا تعبه مُهمل، ولا صبره على مشاقّ هذه الدنيا عبث. فقط تزوّدوا! تزوّدوا لآخرتكم بالأعمال الصالحة! وأفضل زادٍ ينفع في الآخرة هو التقوى. التقوى هي نفسها التي نصادفها في كل مُنعطَفٍ في سورة البقرة، فالتقوى هي زاد الأرواح، وزاد القلوب. وأكثر من يعِي وينتفع ويلتزم بالتقوى هم أصحاب البصيرة وأصحاب العقول.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨)

تمضي الآيات في بيان أحكام الحجّ وشعائره، فتبيّن حكم مزاولة التجارة بالنسبة للحاج بأنّه لا حرج ولا إثم عليكم في التجارة أثناء الحج عن طريق البيع والشراء والكراء. فإن التجارة الدنيوية لا تنافي العبادة الدينية. وقد كان الصّحابةُ- رضوان الله عنهم- يتأثّمون من ذلك، فنزلت الآية تبيح لهم الاتجار في أشهر الحج.

ثمّ إنّ الركن الأعظم في الحج هو الوقوف بأرض عرفة يوم التاسع من شهر ذي الحجّة، لقوله ﷺ: «الحج عرفة». وقد وقف النبي ﷺ في عرفةَ نهارا على راحلته حتى غابت الشمس. وينبغي للواقفين في عرفة أن يكثروا من الدعاء، فإنهم في موقف عظيم ودعاؤهم يرجى إجابته. قال النبي ﷺ: "خيرُ الدعاءِ دعاءُ يومِ عرفَةَ، وخيرُ ما قلتُ أنا والنبيونَ من قبلي: لا إلهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلّ شيء قديرٌ".

فإذا غربت شمس يوم عرفة وأفضتم من عرفات مندفعين كالسيل إلى مزدلفة، فاذكروا الله تعالى! بالتسبيح والتهليل والدعاء عند المشعر الحرام بمزدلفة، واذكروا الله تعالى ذكرا حسنا كما هداكم هدايةً حسنة! واشكروه على نعمة الهداية إلى معالم دينه! فقد كنتم قبل هدايته في عِداد الضّالين الغافلين، الجاهلين بالإيمان وشرائع الدين.

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩)

في الجاهليّة كانت قريشٌ وبعض قبائل الجزيرة لا يقفون مع عموم الناس في عرفات، بل يقفون بمزدلفة ترفّعا عن الوقوف مع بقيّة النّاس، وكانوا يقولون: نحن أهل الله في بلدته. فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأتيَ المسلمون جميعا أرضَ عرفة فيقفون فيها ثم يفيض جميع النّاس من عرفة إلى مزدلفة ليُبطِل ما كانت تفعله قريش. فالنّاس في العبادة سواء لا فرق بين قبيلة وقبيلة، ولا امتياز لأحد على أحد.

ثمّ أمرهم الله تعالى بالاستغفار عمّا سلف منهم من المعاصي وطلبِ المغفرة من الله تعالى على التقصير في أداء ما شَرع، فإنَّ الله تعالى عظيم المغفرة واسع الرحمة.

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠)

كان العرب في الجاهلية إذا قضَوا مناسكهم في الحجّ وقفوا بمنى بين المسجد والجبل، وأخذوا يذكرون مفاخرَ آبائهم ومحاسنَ أيامهم، فجاء التوجيه من الله تعالى للمسلمين بأنّكم إذا فرغتم من أعمال الحج، فأكثروا من ذكر الله! وأكثروا من الثناء على الله! وبالِغوا في ذلك! كما كنتم في الجاهليّة تذكرون آباءكم وتعدُّون مفاخرهم، أو أشدَّ ذكرا لله تعالى من ذكر آبائكم. فهو المستحقّ للذكر والشكر والحمد.

ثم أخبر الله تعالى عن أحوال الخلق وانقسام النّاس في تعاملهم مع الدّعاء. الجميع يسألون الله تعالى مطالبهم ولكنَّ مقاصدهم تختلف، فهم بالنسبة للدعاء، الناس فيه قسمان:

القسم الأول يقول في دعائه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنيَا﴾ أي: يا ربنا آتنا فيما نَرغبه في الدنيا! فدعواته محصورةٌ في الطلبات الدنيويّة فقط، لا يطلُب غير الدنيا. وهذا النوع ليس له في الآخرة من نصيب وحظٍّ من الخير. وهذا النوع من الناس جعل همّه الدّنيا، واستولى عليه حبُّها ومُتعتها، فأصبح لا يفكر إلا في الدنيا صارفا نظره عن الآخرة.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١)

والقسم الثاني من الدّاعين: داعٍ عاقل موفّق يطلبُ خيري الدنيا والآخرة. وقد جمعتْ هذه الدعوة كل خيرٍ وصرفت كل شر، فالحسنة في الدنيا تشمل: صحةَ البدن، وراحةَ البال، والعلمَ النّافع، والعملَ الصّالح، والدارَ الرحبة، والزوجة المطيعة، والذرّيةَ الطيّبة، والرزقَ الواسع وغيرَ ذلك. والحسنة في الآخرة تشمل: الأمن من الفزع الأكبر، وتيسيرَ الحساب، ودخولَ الجنة، ومرافقة النبي الكريم ﷺ، والنظرَ إلى وجه الله الكريم وغيرَ ذلك.

وتكملة الدعاء: ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: احفظنا من عذاب النار وما يقرب إليها من قولٍ أو عمل!

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)

هؤلاء الذين طلبوا سعادة الدنيا والأخرة لهم حظٌّ وافرٌ مما عملوا من الخيرات. والله سريع الحساب، فيعجّل لهم تقديم الثواب وهو الجنة. يقول أنس - رضي الله عنه- "كان أكثر دعاء النبي ﷺ: اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار".

هذا الدعاء أجمعُ دعاء وأكمَلُه، فقد جمع جميع أنواع الخير في الدنيا وأنواع الخير في الآخرة، ولذلك كان من أكثر أدعية للنبي عليه السلام

وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)

كان العربُ في الجاهلية يزعمون أنّ الحج ينتهي يوم العيد، وهو اليوم العاشر من شهر ذي الحجة، ولذلك كانوا يَشغلون أيام التشريق بالتفاخر ومغازلة النساء، فأتى الإسلام وأبطل هذا وجعل بقيّة أحكام المناسك تؤدَّى في أيّام التشريق، وبيّن لنا النبي ﷺ أنّ هذه الأيام ينبغي أن تُعمَّر بذكر الله تعالى وبشكره على نعمه، فقال ﷺ: "أيامُ التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله".

قال تعالى: ﴿وَاذكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّام مَعدُودَاتٍ﴾ أي اذكروا الله تعالى بالتكبير والتهليل في أيام قلائل! هي أيام التشريق الثلاثة، بعد يوم عيد الأضحى، لمزيّتها وشرَفها. فاذكروا الله تعالى أدبار الصلوات وعند رمي الجمرات!

وإذا انتهى الحاجُّ من مناسك الحج وأراد العودة إلى دياره، متى يشرع له الخروج؟ أمامه خياران:

الأول: إن استعجل وخرجَ من منى بعد رمي الجمرات في يومين فقط من أيام التشريق، جاز له ذلك ولا حرَج عليه.

الخيار الثاني: أن يتأخَّر في منى حتى يرمي كلَّ أيام التشريق الثلاثة، يجوز له ذلك ولا حرج عليه أيضا، وهو الأفضل لأنّه فعلُ النبي ﷺ.

كلُّ ذلك لمن اتقى الله، فأتى بالحجّ على الوجه الأكمل كما أمر الله. واتقوا الله تعالى! واعلموا أنّكم ستُجمعون إلى الله تعالى للحساب! فيجازيكم على أعمالكم.

وبهذه الآيات انتهى الكلام على أحكام مناسك الحجّ. وانتهاءُ رحلة الحجّ كانتهاءِ رحلةِ الحياة، فكان ختام آيات الحج بقوله تعالى: ﴿وَاعلَمُوا أَنَّكُم إِلَيه تُحشَرُونَ﴾ فاستحضار الحاجّ ليوم الحشر والحساب، هذا مطلب، وهو أحد أهمّ مقاصد الحجّ. فموسم الحجّ إذن تذكرةٌ علنيةٌ صريحةٌ لكلّ المسلمين أننا سنرجع يوما إلى الله. فماذا أعددنا لذلك اليوم؟

سبق وأن بيّن الله تعالى أقسام الناس في أدعيتهم التي تكشف عن خبايا قلوبهم ومعادن نفوسهم، ثم أعقبه بالحديث عن صنفين من الناس: المنافقين والمؤمنين، مع التحذير من اتباع خطوات الشيطان الرجيم.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤)

ذكر الله تعالى فريقين من الناس: فريق النفاق الذي باع نفسه للشيطان، وفريق الإيمان الذي باع نفسه للرحمن.

الفريق الأول (المنافقون):

يروقك بمظهره الأنيق وكلامه اللطيف، ويُثير إعجابك بطلاقة لسانه وحُسن منطقه في أمور الدنيا فقط. أما في أمور الدين والآخرة، فإنه يتظاهر بالصدق والصلاح، وكلما تكلّم بكلامٍ يقول بعدها: "يعلم الله أني صادق"، ويشهد الله أن ما نطق به هو الذي في قلبي، لكنه في الحقيقة شديد الخصومة والعداوة للمسلمين.

لماذا؟ لأنه منافق كذاب: لسانه ودود، وقلبه لدود.

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥)

وإذا انصرف عنك هذا المنافق، ظهرت نفسه الحقيقية: عاث في الأرض فسادًا، فأهلك ما تنتجه الأرض الزروع وقضى على نتاج الحيوانات. ففساده فساد عام يشمل جميع الجوانب، لأن قوام حياة الناس على الزروع والحيوانات، وتخريبه لهما هو تدمير للإنسانية. والله يُبغض الفساد ولا يحب المفسدين.

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)

وإذا قيل لهذا المنافق: "اتق الله واستقم على منهج الله! واجتنب ما يُغضب الله!" لم يقبل، بل حمله الكبر والعصبية على التمادي في الإثم. فعقوبته أن تكون جهنم مستقرًا له، وبئس المصير.

ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، الذي أظهر الإسلام ثم أحرق زرع المسلمين وقتل حيواناتهم. ولكن الآية عامة تشمل كل منافق مخادع غشاش.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)

الفريق الثاني (المؤمنون):

هم الذين باعوا أنفسهم لله طلبًا لرضاه وثوابه، لا يبتغون إلا وجهه. والله رحيم بعباده، يضاعف لهم الحسنات ويعفو عن السيئات.

ذكر المفسرون نزلت هذه الآية في صهيب الرومي رضي الله عنه، عندما تنازل عن كل ماله لهجرة سبيل الله. وهي عامة في كل من يبذل نفسه وماله في سبيل الله.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨)

نداء للمؤمنين:

يا أيها الذين آمنوا! استسلموا لله وانقادوا لأحكامه، وأطيعوا الله ظاهرًا وباطنًا في جميع أحكامه وشرائعه ولا تأخذوا ما يروق لكم ولا تتبعوا أهواءكم كما فعل بنو إسرائيل الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض. الإسلام كل لا يتجزأ، وأصل الإسلام الاستسلام لله تعالى فيصير المسلم عبدًا لله والعبد لا يخالف سيده بل يطيعه فيما يحب ويكره ومن حقق الإسلام بهذا المعنى كتب الله له السلامة في كل شؤونه مع الضير والعقل والمنطق ومع الذات والناس مع الوجود كله وإياكم أن تصيروا في طرق الشيطان ومسالكه لأنه عدو لكم ظاهر العداوة

فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)

تحذير من الشيطان:

هذا تهديد للمتبعين لخطوات الشيطان وإن عقوبة العالم بالحق أعظم من عقوبة الجاهل بالحق ومعنى الآية إن وقع منكم انحراف عن طريق الحق من بعد مجيئ الحجج الواضحة والبراهين القاطعة فأعلموا أن الله غالب على أمره لا يعجزه الانتقام ممن عصاه حكيم في تدبيره وتشريعه فخافوه وعظموه

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)

مصير المعرضين:

ماذا ينتظرون المعرضون عن الإسلام؟ ماذا ينتظر المتبعون لخطوات الشيطان؟ هل ينتظر الكافرون أن يأتيهم الله يوم القيامة بين السحاب والملائكة؟ حينئذٍ يُقضى بينهم: فريق في الجنة وفريق في السعير. فإلى متى الإعراض عن الحق ؟

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١)

سبب الكفر:

ليس ضعف الدليل هو سبب كفرهم، بل الجحود واتباع الهوى. فقد شهد بنو إسرائيل المعجزات فكفروا بها طغيانًا. ومن يكفر بنعمة الله بعد معرفتها فعذابه أليم.

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)

حب الدنيا:

تعلق الكافرين بالدنيا زيّن لهم البقاء على الكفر، بينما المؤمنون سيكونون فوقهم يوم القيامة. والدنيا دار اختبار، والله يبسط الرزق فيها لحكمة.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)

يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة الحكمة من أرسال الرسل والأنبياء فحاجة البشرية إليهم ملحة يبشروهم وينذروهم ويحكموا بينهم بالحق فيما أختلفوا فيه فالناس في أول أمرهم عاشوا على هذه الأرض بالإيمان والفطرة السليمة على دين أبيهم آدم عليه السلام حتى اضلتهم الشياطين فتنازعوا الناس واختلفوا وانقسموا بين مؤمن وكافر من أجل ذلك بعث الله تعالى الأنبياء ليوضحوا الحق للناس فمن اتبعهم بشروه بجنات النعيم ومن أعرض انذروه بعذاب الجحيم ومن هنا نعلم أن العقل وحده لا يكفي في إدراك الخير والاهتداء للحق ولذلك أرسل الله تعالى الرسل والأنبياء وأنزل معه الكتب السماوية التي تشتمل على الحق الواضح الذي لا شك فيه لتفصل بين الناس في القضايا التي اختلفوا فيها أذن أرسال الرسل وأنزال الكتب نعمتان عظيمتان من الله كان يؤذي اجتماع الناس واتفاقهم على الحق فما الذي حصل بعض أولئك الذين أنزل الله عليهم الكتاب والبينات الواضحات ومع ذلك اختلفوا في الكتاب المنزل من عند الله بغيا بينهم هؤلاء حملهم الحسد والظلم وحب الرئاسة والإبقاء على مصالحهم على عدم القبول كل ما جاء به الكتاب مثل الذين أتو التوراة فامنوا ببعض وكفروا ببعض لذلك اختلفوا وتخاصموا في كثير من الشرائع والأحكام أما أهل الإيمان فقد هداهم الله تعالى لأتباع الحق الذي أختلف فيه غيرهم بتوفيق الله تعالى ولطفه والهداية نعمة من الله يهبها من يشاء من عباده ليسير به لطريق الإيمان

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)

يخاطب الله تعالى في هذه الآية الكريم الرسول عليه الصلاة والسلام والذين أمنوا معه ليحثهم على الثبات وعلى المصابرة على مخالفة الكفار وما قد يلقونه من الأذى هل ظننتم يا معشر المؤمنين أن تدخلوا البجنة بمجرد اقراركم بكلمة الإسلام بدون ابتلاء ولا امتحان والحال أنه لم يصبكم مثل الذي أصاب المؤمنين من الأمم السابقة حيث أصابتهم الشدائم والمصائب والنوائب العظيمة من الخوف والمرض والجوع والفقر والعذاب والألم الجسدي والنفسي حتى وصل به البلاء إلى أن يسعجلوا نصر الله فيقول الرسول والمؤمنون متى نصر الله فيأتيهم جواب الله كالماء البارد على الظما أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ألا فابشروا فإن نصر الله قريب ولن ينال هذا النصر إلا الصابرون على المر الثابتون على الحق حتى النهاية نصر في الديا وجنة في الآخرة ولنعم دار المتقين يخلونها وهم المستحقون لها الجديرون بها.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)

في هذه الآية الكريمة يرشد الله تعالى المؤمنين إلى ما يعينهم إلى دفع اذى العداء ومواجهة الصعاب والمشاق وترسيخ التضامن والتكافل بين أفراد المجتمع المسلم عن طريق الإنفاق يسألونك يا محمد عن مقدار ما ينفقون وعن الجهة التي ينفقون فيها فأجبهم يا محمد مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ وهو الحلال الطيب فاليصرف للوالدين والأقربين منكم من قرباتكم بحسب الحاجة وللمحتاج من اليتامى وللمساكين الذين ليس لهم مال يكفيهم وللمسافر الذي انقطع السفر عن اهله ووطنه وأعلموا أن كل معروف تفعله لا يضيع عند الله فهو يعلمه وسيجازيكم عليه أوفر الجزاء

الدرس
الحادي
العشرون
٢١٦_٢٢٣

مضى الكلام على الإنفاق في سبيل الله، وبذل المال للمحتاجين من الأقرباء وغيرهم، ويأتي بعدها الكلام على بذل الأرواح والأنفس، فالمال أخ الروح، بل هو أغلى عند كثير من الناس.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)

فرض الله تعالى على المؤمنين قتال المشركين المعتدين، وهو يعلم أن القتال مكروه لهم وشاق على نفوسهم لما فيه من الآلام وتعريض النفس للهلاك. ولكن قد تكره نفوسكم شيئا ويكون فيه النفع والخير، وقد تحب نفوسكم شيئا ويكون فيه الخطر والضرر. فالله الذي فرض عليكم القتال أعلم بعواقب الأمور منكم، وأعلم بما هو خير لكم وما هو شر لكم، فاستجيبوا لأمر الله! ففيه الخير لكم. إننا معاشر المسلمين لا نحب الحروب، بل نؤثر العافية والاستقرار بين الأهل والأحبة، والقتال كره لنا كما قال الله. فلا بأس بالسلام مع صون الحقوق واحترام العقيدة، أما إذا كان السلام يعني الاستسلام وقبول الدنية، فلا مرحبا به.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)

ذكر المفسرون أن بعض المسلمين بقيادة عبد الله بن جحش -رضي الله عنه- أغاروا على قافلة لقريش في شهر حرام، وكان ذلك في أول ليلة من شهر رجب، وقد ظنوها آخر ليلة من شهر جمادى. فهم قاتلوا المشركين في شهر رجب الحرام على سبيل الخطأ فقالت قريش: لقد استحل محمد وأصحابه القتال في الشهر الحرام فاشتد هذا الكلام على المسلمين، وأخذوا يسألون، فأنزل الله تعالى هذه الآية. يسألك أصحابك يا محمد! عن القتال في الأشهر الحرم: ذي القعدة وذي الحجة ومحرم ورجب، أجائز أم حرام؟ قل لهم: القتال في الشهر الحرام حرام، وأمره كبير، ووزره عظيم، ولكن اعلموا أن هناك ما هو أعظم وأخطر من ذلك! ما تفعله قريش من منع من يريد الإسلام من اعتناقه، وإعلان الكفر بالله، وصد المسلمين عن المسجد الحرام، بمنعهم من الحج والعمرة، وبإخراج النبي ﷺ والصحابة من بلدهم مكة، كل ذلك أعظم وزرا وذنبا عند الله من القتال في الشهر الحرام. فمشركو مكة إن كانوا مستعظمين لقتالكم لهم في الشهر الحرام خطأً، فليعلموا أن ما ارتكبوه هم، في حق النبي ﷺ والمؤمنين، هو أعظم وأشنع! وكذلك فتنة المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر، أكبر عند الله تعالى من القتل. وما حوادث التعذيب والفتنة التي فعلتها قريش مع عمار وخباب وبلال وغيرهم ببعيدة عن الأذهان. واعلموا أيها المسلمون! أن سبيل كفار قريش معكم هو سبيل التجني والظلم، وأنهم سيظلون يقاتلونكم ويضمرون لكم السوء لكي يعيدوكم إلى الكفر إن قدروا. فهم يريدون رددتكم وفتنتكم عن الإسلام فاثبتوا على دينكم! أما من يستجيب منكم لهم فيرتد عن الإسلام، ثم يموت على الكفر، فقد بطل عمله الصالح وذهب ثوابه، ومآله في الآخرة إلى النار لا يخرج منها أبدا.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

بعد أن بين الله تعالى في الآية السابقة عاقبة من يرتد عن دينه، أتبع هنا في هذه الآية بيان عاقبة المؤمنين الصادقين الثابتين: إن الذين آمنوا بالله ورسوله، والذين فارقوا الأهل والأوطان، مهاجرين في سبيل الله ومجاهدين لإعلاء كلمة الله، أولئك يطمعون في رحمة الله ومغفرته، وهم الجديرون بأن يغفر الله لهم ذنوبهم، وأن ينالوا رحمة الله تعالى الواسعة.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)

لا تقوم دعائم الدولة إلا على الإصلاح في الشأن الخارجي والشأن الداخلي، ففي الآيات السابقة ساق الله تعالى أحكام القتال حماية للأمة من أن يلتهامها العدو الخارجي، وذكر في هذه الآية ما يتعلق بالإصلاح للمجتمع الداخلي، الذي يقوم على أسس الفضيلة ونبذ ما يضاد ذلك. يسألونك يا محمد! عن حكم تعاطي الخمر وحكم لعب القمار، فقل لهم!: إن فيهما ضررا عظيما وإثما كبيرا، إضافة إلى وجود منافع مادية نسبية: ففي الخمر أرباح تجارية فقط لمن يتاجر فيها، وفي القمار أرباح مالية فقط لمن يربح فيه بدون تعب ولا جهد، لكن ضررهما على الأفراد والمجتمع أعظم بكثير من نفعهما النسبي الضئيل المحصور لبضعة أفراد. فالخمر تذهب العقل، وتهلك المال، وتضيع الصحة، تخرب البيوت، لذا كانت أم الخبائث. أما القمار فإنه يضيع الوقت، ويهلك المال، ويدمر الأسر، ويحدث العداوة والبغضاء بين اللاعبين. وإذا قيس الضرر الفادح بالنفع التافه، ظهر خطر هذه المنكرات الخبيثة علما بأن هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر تحريما قطعيا، فالخمر حرمت بالتدرج كما هو معلوم. ويسألونك ماذا ينفقون: أي عن قدر ما ينفقونه من أموالهم على وجه التطوع. قل لهم!: أنفقوا العفو! أي المقدار الزائد عن حاجتكم وحاجة من تعولونهم، ولا تنفقوا المال الذي تحتاجون إليه! حتى لا تضيعوا أنفسكم. وبمثل هذا البيان الواضح الذي لا لبس فيه، يبين الله تعالى لكم سائر أحكام الشرع، لكي تتفكروا فيما ينفعكم في دنياكم وآخرتكم.

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

كان بعض الأوصياء يخلطون طعام اليتامى بطعامهم وأموال اليتامى بأموالهم، وكان الضرر يقع أحيانا على اليتامى، فنزلت آيات تخوف من أكل أموال الأيتام، فتحاشى الصحابة عن خلط أموالهم بأموال اليتامى خوفا من العقوبة، فصاروا يجعلون طعامهم على حدة وطعام اليتامى على حدة، وكان في ذلك ضرر على مال اليتيم أحيانا، لذلك سألوا رسول الله ﷺ هل يخالطون أموالهم بأموال اليتامى، في النفقة والمطاعمة والمساكنة؟ فكان الجواب: بأن المقصود هو إصلاح أموال اليتامى، بحفظها وصيانتها والاتجار فيها، ومخالطة أموالكم بأموالهم جائز إذا كان لا يضر باليتامى، أما إن كان يضر باليتامى فلا يجوز، لأنهم إخوانكم في الدين. ومن حقوق هذه الأخوة: الأمانة وعدم الإضرار. والله تعالى يعلم من ينوي الخيانة والإفساد، ويعلم كذلك من يقصد لهم الإصلاح والمنفعة، فيجازي كلًّا بعمله، ولو شاء الله تعالى لأوقعكم في الحرج والتضييق بأن أوجب عليكم ترك المخالطة أو ترك بيان هذا الأمر فيشق عليكم ذلك، ولكن الله تعالى يسر لكم سبيل التعامل مع أموال اليتامى فاشكروه على ذلك! واعلموا أن الله تعالى غالب على أمره، حكيم لا يشرع إلا ما فيه مصلحتكم.

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

شرعت سورة البقرة في الحديث عن جانب من دستور الأسرة، وقانون الجماعة الصغيرة التي يقوم عليها المجتمع المسلم، والتي أحاطها الإسلام برعاية واهتمام، وأخذ في تنظيمها وتطهيرها من فوضى الجاهلية. وكانت البداية مع قضية الزواج لأنه نواة المجتمع، لذا جعل الإسلام أساس الاختيار في الزواج هو: التدين السليم والخلق القويم. ولا يتأتى ذلك إلا باختيار الزوج والزوجة بناء على إسلامه وخلقه. فقال الله تعالى محذرا: لا تتزوجوا بالمشركات من غير أهل الكتاب حتى يؤمن بالله واليوم الآخر! ولأمة مؤمنة خير وأفضل من حرة مشركة، ولو أعجبتك بمالها وجمالها وحسبها ونسبها، وسائر مواصفاتها. وكذلك لا تزوجوا بناتكم من المشركين، وثنيين كانوا أم أهل الكتاب حتى يؤمنوا! ولو قمتم بتزويجهن من عبد مؤمن خير لكم من تزويجهن من حر مشرك، مهما أعجبكم هذا الحر في حسبه ونسبه وجماله. والسر في التحريم: أن الأزواج المشركين سيؤثرون على من يعاشرونهم قطعا، فيدعون غيرهم بأقوالهم أو أفعالهم إلى الشر، والشر سيقودهم إلى النار. فليس لهم دين يردعهم ولا كتاب يهديهم، أما الله تعالى فهو يريد بكم الخير، ويدعوكم إلى الأعمال الصالحة، التي توصلكم إلى الجنة ومغفرة الذنوب بإذن الله تعالى وفضله. والله تعالى إنما يبين للناس حججه وأدلته، ليتذكروا، فيميزوا بين الخير والشر وبين الخبيث والطيب.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)

في المدينة المنورة احتك المسلمون باليهود، وكان اليهود يتشددون في معاملة المرأة الحائض، فيعتزلونها بالكلية في المأكل والمشرب والجماع، بل حتى اللمس لأنهم يعتبرونها نجسة. فإذا مس الرجل عندهم جسد الحائض، وجب عليه أن يغسل جسده بالماء، وثيابه بالماء، ويكون نجسا إلى المساء. أما النصارى فكانوا على العكس تماما: يفعلون مع الحائض كل شيء حتى الجماع، فكان هذا داعيا لتساؤل المسلمين فأجابهم الله تعالى بأن الحيض شيء مستقذر، وجماع الحائض فيه أذى، يضر الرجل والمرأة على السواء، لذا اجتنبوا معاشرة النساء فترة الحيض! فلا تجامعوهن حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن بعدها! فأتى حكم الإسلام وسطا بين تشدد اليهود وبين تساهل النصارى. فالممنوع هو الجماع فقط، والمسموح: سائر أنواع التعامل والمعاشرة كالأكل والنوم واللمس والمجالسة وغير ذلك. فإذا تطهرن نساؤكم من الحيض ثم اغتسلن بالماء، أبيح لكم جماعهن في الموضع الذي أحله الله لكم، وهو القبل وليس الدبر. فمن وقع منه شيء مخالف لذلك، فليتب إلى الله! فإن الله تعالى يحب التائبين من الذنوب، ويحب المتطهرين الذين يتنزهون عن الفواحش والأقذار. زوجاتكم مكان زرعكم، وفي أرحامهن يتكون أولادكم، فأتوا محل الزرع وهو القبل! من أي جهة شئتم وكيفما شئتم، بشرط أن يكون الوطء في القبل. وقدموا لأنفسكم بفعل الأعمال الصالحة التي تكون لكم ذخرا في الآخرة! ومنها أن يجامع الرجل امرأته بقصد التقرب إلى الله تعالى وطلب الذرية الصالحة، وليس لمجرد قضاء الشهوة. واتقوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه! ومنها ما شرع لكم في أحكام النساء. وأيقنوا بأن مصيركم إلى الله وسجازيكم على أعمالكم! وبشر يا محمد! المؤمنين الذين يطيعون الله ورسوله بما يسرهم عند لقاء ربهم.

الدرس الثاني
العشرون
٢٢٤_٢٣٣

تتابع سورة البقرة حديثها عن شؤون الأسرة، وبدأت بذكر حكم الإيلاء وهو الحلف بالامتناع عن مباشرة الزوجة، وبعده كان التفصيل الدقيق عن أحكام الطلاق والرجعة وغير ذلك.

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤)

قد يتسرع الإنسان فيحلف على ترك بعض أعمال الخير، والله ينهانا أن نجعل اسمه الكريم سببا لمنع أعمال البر والإصلاح بين الناس. فمن أقسم على ترك عمل صالح، فعليه أن يفعل العمل الصالح، وليكفر عن قسَمه! لأن عمل البر أولى من المحافظة على هذا القسَم. والله سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم وسيجازيكم عليها.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)

إذا جرى على لسانكم ذكر اسم الله تعالى ولم تقصدوا به القسَم، فإن الله تعالى لا يؤاخذكم بذلك كقول أحدكم: بلى والله، إي والله، لا والله، بدون قصد الحلف بالله، فلا كفارة عليكم. وهذه تسمى: اليمين اللغو. وإنما يؤاخذكم الله تعالى إن قصدتم الحلف، وعقدتم القلب عليه، فهذه فيها الحرمة إذا حنث فيها المسلم، وعليه الكفارة وهي: إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فعليه صيام ثلاثة أيام. كل هذه الأحكام حتى لا تجعلوا اسم الله تعالى عرضة للابتذال. والله غفور لذنوب العباد، حليم لا يعاجلهم بالعقوبة.

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦)

قد يقوم الزوج بتصرف خاطئ فيظلم به زوجته، فشرع الإسلام من الأحكام ما يضبط مثل هذه التصرفات لتستقر الأسر. ومن هذه الأخطاء: أن يحلف الرجل أن يعتزل زوجته ولا يقربها. وهذه عادة جاهلية: كانوا يحلفون ألا يقربوا نساءهم لمدة السنة أو السنتين إضرارا بهن. وهذا تصرف لا يرضاه الله، لما فيه من امتهان المرأة، وهو ما يعرف بالإيلاء: بإيلاء النساء.

وحكم ذلك: يعطى الزوج فرصة للفيئة إلى الزوجة، أي الرجوع إلى جماع زوجته بحيث لا تزيد المدة عن أربعة أشهر، فإن رجع إلى معاشرة زوجته قبل هذه المدة، حنث في يمينه وكفر عنها. والله يغفر لمن حصل منه هذا، ورحيم به، حيث شرع الكفارة مخرجا من هذا اليمين.

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)

أما إذا امتنع الزوج من الرجوع إلى الزوجة، كان ذلك دليلا على نفوره منها، وعزما منه على الطلاق، فعليه أن يطلقها ولا يؤذيها بهذه الطريقة! فإن رفض أجبره القاضي على الطلاق، إزالة للضرر عن النساء. والله سميع لأقوالهم التي منها الطلاق، عليم بأحوالهم ومقاصدهم وسيجازيهم عليها.

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)

كانت المرأة في الجاهلية إذا طلقها زوجها قد تتزوج بعد طلاقها مباشرة دون أن تنتظر العدة، ثم يظهر أنها حبلى من الزوج الأول، لكنها تلحق الولد بالزوج الثاني، وفي هذا اختلاط للأنساب وضياع للحقوق. فلما جاء الإسلام حرم هذا، ونظم الأمور، فجاءت أحكام الطلاق، رحمة بالناس وأخذ كل ذي حق حقه. والله إن أحكام الطلاق في الإسلام مفخرة، علينا أن نعتز بها!

من هذه الآية وما بعدها تسوق السورة بعض أحكام الطلاق، ومعنا في هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: إذا طلق الرجل زوجته فإن عدتها تختلف باختلاف حالها: فإذا كانت المطلقة ممن دخل بها زوجها فهذه تمكث بعد الطلاق ثلاثة قروء بدون نكاح. وثلاثة قروء فيه قولان، قيل: ثلاث حيضات، وقيل: ثلاثة أطهار. أما المرأة التي لا تحيض كالمرأة الكبيرة مثلا فعدتها ثلاثة أشهر. والحامل عدتها بوضع الحمل. فإذا انقضت هذه العدة، للمرأة أن تتزوج بعد ذلك إن شاءت.

المسألة الثانية: لا يباح للمطلقات أن يخفين ما في أرحامهن من حمل أو حيض استعجالا في العدة أو إبطالا لحق الزوج في الرجعة، إن كن حقا مؤمنات بالله تعالى ويخشين من عقابه، فالمرأة أمينة على رحمها.

المسألة الثالثة: في الطلاق الرجعي، أزواجهن أحق بمراجعتهن في مدة العدة، لأن الإسلام حريص على بقاء رباط الزوجية بشرط أن يكون مقصود الزوج هو الإصلاح والألفة، وليس الانتقام والمضرة.

المسألة الرابعة: للنساء حقوق وعليهن واجبات وكذا الرجال لهم حقوق وعليهم واجبات. وهذا قانون عام وتعبير مرن يصلح لكل زمان ومكان وجماعة. وللرجال على النساء درجة أي: ميزة من القوامة والإنفاق وأمر الطلاق. ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي غالب على ما يريده، ومن عزته أنه أعز المرأة، وأعطاها حقوقها بعد أن كانت كالمتاع لدى جميع الأمم. وهو حكيم في أمره وتدبيره وتشريعه.

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)

جاءت في هذه الآية ثلاث مسائل، متعلقة بالطلاق الرجعي وبالمهر وبالخلع.

المسألة الأولى: عدد الطلاق الرجعي الذي يحق للزوج فيه أن يرجع زوجته: طلقتان، بأن يطلق ثم يراجع، ثم يطلق ثم يراجع، وبعد الطلقتين إما أن يراجع زوجته فيمسكها بمعروف، بأن يحسن عشرتها أو يطلقها الطلقة الثالثة وتكون طلقة بائنة، وعليه الإحسان إليها كأداء حقوقها وعدم ذكرها بسوء.

وقد كان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته ما شاء من الطلاق بلا نهاية، ثم يراجعها قبل أن تنقضي عدتها ولو طلقها ألف تطليقة. فكانت المرأة تتضرر بهذا، بل أصبحت ألعوبة بيد الرجل. فانظر كيف نظم الإسلام أمور الطلاق، وأنقذ المرأة من ظلم محقق!

المسألة الثانية: المهر الذي دفعتموه أيها الأزواج لزوجاتكم! لا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئا ولو قليلا.

المسألة الثالثة: إذا كان هناك خوف من سوء العشرة بين الزوجين، وكانت المرأة كارهة لزوجها، فلها الحق أن تخلع زوجها، مقابل النزول عن مهرها، أو بدفع شيء من المال لزوجها حتى تنفصل عنه، ولا إثم ولا حرج عليهما في ذلك.

هذه الأحكام العظيمة التي شرعها الله تعالى، من الطلاق، والعدة، والرجعة، والمهر، والخلع، وغيرها هي شرائع الله فلا تخالفوها! ومن خالفها وتجاوزها فهو ظالم لنفسه، مستحق للعقوبة.

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى أحكام الطلاق البائن: فإن طلق الرجل زوجته طلقة ثالثة، فإن زوجته تصير محرمة عليه ولا تحل له بعد ذلك، إلا إذا تزوجها رجل آخر نكاحا شرعيا صحيحا. فإن طلقها الزوج الثاني أو توفي عنها؛ فلا حرج عليهما في الزواج من جديد بعد انقضاء عدتها، وذلك الزواج بعقد جديد، إن كان ثمة دلائل تشير إلى الألفة وحسن العشرة بينهما، والالتزام بأحكام الله تعالى. وتلك الأحكام الشرعية يبينها الله تعالى لأهل العلم والفهم لأنهم الجديرون بالانتفاع بها.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)

يعود السياق لبيان أحكام الطلاق الرجعي، يا معشر الرجال! إذا طلقتم النساء طلاقا رجعيا، واقترب انقضاء العدة فلكم: إما تراجعوهن بمعروف فتحسنوا عشرتهن، أو تفارقوهن بمعروف بإعطائهن حقوقهن وعدم ذكرهن بسوء. وإياكم أن تراجعوهن لأجل الإضرار بهن! ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ لأنه يعرض نفسه لعذاب الله. واحذروا أن تجعلوا من أحكام الله محل استهزاء بالتلاعب بها! واذكروا نعم الله عليكم! ومن أعظمها: نزول القرآن والسنة عليكم من أجل موعظتكم وإرشادكم. واتقوا الله تعالى وراقبوه في أعمالكم! واعلموا أن الله لا تخفى عليه خافية من أحوالكم!

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)

في الآية الكريمة خطاب لأولياء المرأة بعدم عضل النساء، أي منع النساء الراغبات في العودة إلى أزواجهن: فإن طلقهن أزواجهن طلاقا رجعيا، وانتهت عدتهن، فلا تمنعوهن يا معشر الأولياء! من العودة إلى أزواجهن بنكاح جديد إذا صلحت الأحوال بين الزوجين وتم التراضي بينهما. وهذا النهي عن الإضرار بالنساء، ينصح به ويوعظ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، لأن إيمانه يمنع ظلم المرأة بالعضل. وهذا خير لكم وأطهر لأعراضكم. والله تعالى يعلم حقائق الأمور وعواقبها وأنتم لا تعلمون ذلك.

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)

بعد ذكر أحكام الطلاق، ناسب بعدها ذكر أحكام الرضاعة لأنه قد يطلق الرجل زوجته ويكون بينهما طفل ترضعه، وهنا خمس مسائل:

المسألة الأولى: إرضاع الأولاد يكون من واجبات الأمهات لمدة سنتين كاملتين إذا شاء الوالدان إتمام الرضاعة.

المسألة الثانية: نفقة وكسوة الوالدات المطلقات المرضعات تكون على والد الرضيع بما هو متعارف بدون إسراف ولا تقتير، لتقوم الأم بخدمة الرضيع حق القيام. وتكون النفقة بقدر طاقة الأب، لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها.

المسألة الثالثة: لا يحل لأحد الأبوين أن يتخذ من الولد الرضيع وسيلة للإضرار بالآخر: كأن ترفض الأم إرضاع الطفل أو ينتزع الأب الطفل من أمه ليغيظ أحدهما الآخر.

المسألة الرابعة: إذا عدم الأب انتقلت النفقة إلى ورثة الطفل.

المسألة الخامسة: توجد رخصتان في الإرضاع:

الأولى: إذا اتفق الوالدان على فطام الرضيع قبل تمام السنتين، فلا إثم عليهما في ذلك إذا كان بعد تراضيهما على ما فيه مصلحة المولود.

والرخصة الثانية: إن أراد الآباء أن يطلبوا لأولادهم مرضعات غير الأمهات فلا إثم عليهم، شريطة أن يدفعوا للمرضعات الأجر المناسب الذي اتفقوا عليه.

واتقوا الله تعالى وراقبوه في جميع أفعالكم! فإن الله تعالى بصير لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأحوالكم.

الدرس الثالث العشرون ٢٣٤_٢٤٥

ما زال السياق في بيان مسائل الطلاق والعدة والنفقات وبعض الحقوق والأحكام التي تتعلق بالأسرة وصيانتها وسعادتها لتهتدي إلى أفضل الأخلاق وأقوم العلاقات بين الأفراد والأسر والجماعات.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)

يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة عدة المرأة إذا توفي عنها زوجها والمعنى الذين يتوفاهم الله تعالى منكم أيه المسلمون ويتركون وراهم زوجات غير حوامل فعليهن الانتظار حتى انقضاء عدتهن ومدته أربعة أشهر وعشرة أيام فيمتنعن خلالها عن الخروج من بيت الزوج ويمتنعن عن الزواج وعن التزين والتجمل وفاء في حق الزوج الميت واستبراء للرحم فإذا انتهت العدة فلا أثم عليكم أيه الأولياء فيما فعلن بأنفسهن مما كان ممنوعًا عليهن في فترة العدة على الوجه معروفًا شرعًا وعرفا والله خبير بأعمالكم ظاهرة وباطنة وسيجازيكم عليها؟

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)

تضمنت الآية الكريمة حكم خطبة المرأة المعتدة، أولًا: المرأة المطلقة طلاقًا رجعيًا: يحرم خطبتها أثناء العدة لأنها في حكم الزوجة، فلزوجها أن يراجعها ما دامت في العدة. ثانيًا: المرأة المعتدة من وفاة أو طلاق بائن: فيحرم التصريح لها بالخطبة ويجوز التعريض. والتعريض هو التلميح بالزواج كأن يقول لها: إني أبحث عن زوجة مناسبة، أو إذا انتهت عدتك فشاوريني إن أردت الزواج! فلا جناح عليكم في التلميح أو فيما أخفيتموه في أنفسكم من رغبة الزواج بهن، ولكن احذروا أن تتواعدوا بالنكاح سرًا وهن في مدة العدة! إلا وفق المعروف من القول وهو التعريض. ولا تبرموا عقد النكاح حتى تنتهي العدة! واعلموا أن الله يعلم ما تضمرونه في أنفسكم! فاحذروا عقابه! واعلموا أن الله غفور على من تاب! وحليم لا يعاجل بالعقوبة.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)

في الآية الكريمة بيان حكم الطلاق لو وقع قبل الدخول بالزوجة، وكان المهر غير محدد بعد. فلا إثم عليكم أيها الرجال! إن طلقتم زوجاتكم اللاتي عقدتم عليهن ولم تجامعوهن، وقبل أن توجبوا لهن مهرًا معينًا. والحكم في هذه الحال أنه: لا يجب عليكم دفع المهر لهن لأنه لم يتم تحديده، لكن يجب إعطاؤهن عطاءً من المال أو غيره يتمتعن به تطييبًا لخاطرهن وجبرًا لنفوسهن. ويكون هذا العطاء على حسب حال الرجل واستطاعته: الغني بقدر يساره والفقير بقدر إعساره. وهذا العطاء حق ثابت على أهل الإحسان.

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)

في الآية السابقة كان بيان حكم الطلاق لو وقع قبل الدخول وقبل تسمية المهر، وفي هذه الآية الكريمة حكم الطلاق لو وقع قبل الدخول والمهر كان محددًا. فيا أيها الرجال! إن طلقتم زوجاتكم اللاتي عقدتم عليهن قبل الجماع وقد أوجبتم لهن مهرًا معينًا، فالواجب عليكم أن تدفعوا لهن نصف المهر الذي حددتموه، إلا إذا أسقطت المطلقة حقها أو سمح الزوج ببذل كامل المهر لها، فلهما ذلك.

ثم حبب الله تعالى التسامح إلى الأزواج فقال: ﴿وَأَن تَعفُوا أَقرَبُ لِلتَّقوَى﴾ أيها الرجال والنساء! أن تتسامحوا في الحقوق التي بينكم، فهذا أقرب إلى تقوى القلوب وصفاء النفوس، لأن هذا التنازل والتسامح يضفي على جو الطلاق لونًا من المودة والتقارب بين النفوس التي آلمها الفراق. ولا تنسوا الجميل والإحسان بينكم! فالله مطلع على أعمالكم وسيجازيكم عليها.

وما أجمل ختام هذه الآيات بالتذكير بالمودة والجميل الذي كان بين الزوجين والوصية بالعفو والإحسان! ولقد حفظ لنا التاريخ الإسلامي صورًا مشرقة لهذا العفو والفضل، من ذلك أن أحد الصحابة تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول بها، فأعطاها المهر كاملًا. والمفروض هو دفع نصف المهر، فقيل له في

ذلك فقال: أنا أحق بالعفو منها. وهكذا نرى حرص السلف الصالح على الاستجابة لتوجيهات القرآن، فأين المسلمون اليوم من هذه الوصايا والأحكام؟ فشرائع الأسرة يستحيل نجاحها بعيدًا عن ضوابط الأخلاق والإيمان والتقوى.

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)

وبعد هذا الحديث المستفيض عن الطلاق وأحكامه، تأتينا آيات عن الصلاة والذكر متوسطة بين الآيات المتعلقة بأحكام الأسرة ومسائل الطلاق، وذلك لحكمة بليغة. لعل السر في ذلك: أن أمور الطلاق غالبًا ما تثير التخاصم بين الناس، فأراد القرآن بطريقته وأسلوبه أن يوجه الناس إلى الله بالدعوة إلى الصلاة. فهي خير معين على حل قضاياكم المتعلقة بالطلاق وغيره، إضافة إلى أن الطلاق قد يترك في صدر أحد الزوجين ألمًا وهمًا، فالصلاة دواء للمنغصات النفسية، ووسيلة لنسيان هموم الدنيا. ولهذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أي أحزنه أمر توجّه إلى الصلاة. فالطلاق يولد البغضاء والشحناء والصلاة تنهى عن المنكر والفحشاء. وهذا أفضل طريق لتربية النفس الإنسانية.

فيا أيها المؤمنون! واظبوا على أداء الصلوات في أوقاتها! وخاصة الصلاة الوسطى وهي صلاة العصر. فحافظوا على الصلاة! تحفظكم من كل هم وغم وكدر، وتحفظكم من الفحشاء والمنكر. وقوموا لله في صلاتكم خاضعين خاشعين!

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)

والصلاة واجبة على المسلمين في كل وقت وحين. حتى في حال الخوف من العدو لا تتركوا الصلاة! بل صلّوها كيفما تيسر لكم! على أي كيفية: مشاة على أرجلكم أو راكبين على دوابكم. على أي وضع كان، فإذا زال الخوف عنكم، اذكروا الله تعالى! وصلوا الصلاة تامةً على الكيفية التي شرعها الله لكم! وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمونه من النور والهدى. وتلك نعمة عظيمة تقتضي مقابلتها بالذكر والشكر لله تعالى.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)

تعود الآيات للحديث عن الطلاق والعدة والنفقات، ومعنى الآية: والذين يشرفون منكم على الموت، ويتركون زوجاتهم، يجب عليهم قبل أن يحضرهم الموت: أن يوصوا لزوجاتهم بالسكن والنفقة لمدة عام كامل يُنفق عليهن من التركة. وعلى الورثة ألا يخرجوهن من مساكنهن جبرًا لهن على ما أصابهن، فإن خرجن قبل إكمال العام مختارات راضيات من تلقاء أنفسهن، فلا إثم عليكم يا أولياء الميت! في تركن أن يفعلن ما لا ينكره الشرع كالتزين والتطيب والتعرض للخطاب. والله غالب في ملكه، حكيم في تدبيره وشرعه.

هذا وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن حكم هذه الآية كان في أول الإسلام، ثم نسخت المدة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام للمتوفى عنها زوجها، كما مر معنا في الآية السابقة.

وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١)

قد أكرم الله تعالى النساء المطلقات وجعل لهن حقًا بأن يعطين عطاءً يتمتعن به، من كسوة أو مال أو غيره، جبرًا لخواطرهن المنكسرة بالطلاق. يدفع إليهن بالمعروف حسب استطاعة الزوج. وهذا العطاء حق ثابت على المؤمنين المتقين لله تعالى.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)

ولما بين الله تعالى الأحكام العظيمة المتعلقة بالأحوال الشخصية من أحكام النكاح والإيلاء والطلاق والرجعة والخلع والرضاع والعدة والمهور، المشتملة على الحكمة والرحمة، امتن الله بها على عباده. بأن مثل ذلك البيان الشافي الذي يراعي المصالح، يبين الله لكم آياته وهداياته المشتملة على حدوده وأحكامه لعلكم تعقلونها ثم تعملون بها، فتنالون السعادة في الدنيا والآخرة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)

بعد انتهاء الحديث عن أحكام نظام الأسرة، جاء الآن الحديث عن نظام الجماعة، وأن قوامها على القوة والعزة، ولا صلاح للأسرة إلا بصلاح المجتمع.

وكانت التوطئة بهذه القصة: ألم يصل إلى سمعك أيها المخاطب! خبر قوم من بني إسرائيل كانوا ألوفًا مؤلفة، قيل: أنهم كانوا ثمانين ألفًا، خرجوا من وطنهم وديارهم فرارًا من الموت.

وسبب خروجهم: ذكر المفسرون في ذلك قولان: قيل: بسبب وباء وقع في بلادهم، وقيل: لأن العدو دهمهم فدعاهم ملكهم إلى الجهاد لكنهم خافوا وهربوا، فقال الله تعالى لهم: موتوا! فماتوا جميعًا. روي أن الله تعالى أماتهم ثمانية أيام ثم أعادهم الله تعالى أحياء.

قال ابن كثير: "في هذه القصة عبرة ودليل، على أنه لا يغني حذر من قدر، فإن هؤلاء خرجوا فرارًا من الوباء، طلبًا لول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعًا في آن واحد".

والله ذو إحسان على الناس، حيث يريهم من الآيات الباهرة ما يبصرهم بالحقائق النافعة، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله.

وتشير الآية الكريمة إلى أن موت الأمم غالبًا له سببان: الجبن والبخل، ولذا جاءت الآية التالية تدعو إلى القتال، والآية بعدها تدعو إلى الإنفاق.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤)

القصة السابقة كانت توطئة للأمر بالقتال، فكما أن هروب أولئك من ديارهم لم يمنحهم الحياة، فكذلك قعودكم عن القتال لن يمنحكم الحياة والبقاء. فيا أيها المؤمنون! قاتلوا أعداء الله لإعلاء دين الله! واعلموا أن الله سميع لأقوالكم! عليم بنياتكم وأفعالكم وسيجازيكم عليها.

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)

ولما كان القتال في سبيل الله لا يتم إلا ببذل الأموال، أمر الله تعالى عباده بالإنفاق، وسماه قرضًا. ومعنى الآية: إن الذي ينفق ماله في وجوه الخير ابتغاء مرضاة الله سيكون جزاؤه مضاعفة أجره أضعافًا كثيرة. والله يضيق في الرزق على من يشاء من عباده ويوسع على من يشاء من عباده، ابتلاءً وامتحانًا بحكمته وعدله. وإليه ترجعون يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم.

الدرس الرابع العشرون
٢٤٦_٢٥٣

تسوق لنا سورة البقرة قصةً عجيبةً من قصص بني إسرائيل مع أنبيائهم، تمثّل في ثناياها أهم العظات والعبر لمن هو في موقف المسلمين الذين يحاربهم الأبيض والأحمر بلا هوادة وعلى طول الزمن.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)

تبدأ هذه القصة بأسلوبٍ قرآني رائع ومشوّق للسامع: *"ألم يصل إليك يا محمد ﷺ خبر رؤساء وأشراف بني إسرائيل؟"* والذين وُجدوا في الفترة الزمنية بعد موسى -عليه السلام-، وكانوا قد انهزموا أمام أعدائهم هزيمةً منكرة جعلتهم يولُّون الأدبار، ويذوقون الذلَّ والهوان تاركين ديارهم وأبناءهم.

وقد ذكر المفسّرون أنّ بني إسرائيل ظهر فيهم الفجور والمجاهرةُ بالمعاصي، فسلّط الله تعالى عليهم عدوا جبّارا، وهم البابليّون، فغزوا فلسطين وشرَّدوا بني إسرائيل، فأصبحوا لاجئين. فقال بنو إسرائيل لنبيّهم (قيل أنّ اسمه صموئيل): *"اجعل لنا أميرا يقودنا للقتال في سبيل الله"*، فأجابهم نبيهم -ولعله كان عالما بطبيعتهم-: *"لعلكم إن فُرض عليكم القتال في سبيل الله أن تمتنعوا"*، فردّوا قائلين في حزم ظاهري: *"أي سبب يمنعنا من القتال وقد وُجدت مسوغاتُ القتال وأسبابُه؟ فقد أخرجونا من أوطاننا وأسروا أبناءنا."*

فلما فرضَ الله عليهم القتال، حصل ما كان يخشى منه نبيهم، فتولى أكثرهم عن القتال وأعرض إلا فئة قليلة. يقول القرطبي: *"وهذا شأن الأمم المتنعِّمة المائلة إلى الدَّعة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة، فإذا حضرت الحربُ جَبُنَتْ وانقادت لطبعها."* والله عليم بهؤلاء الظالمين المعرضين عن أمره، الناقضين لعهده وسيجازيهم على ذلك.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)

الله تعالى يبيّن لنا مقدّمات تخاذل بني إسرائيل وتقاعسهم حين قال لهم نبيهم عليه السلام: *"إنّ الله اختار لكم طالوت ليكون ملكا وقائدا لكم في قتالكم."* وكان طالوت رجلًا من عامّتهم، ولذلك اعترضوا على ذلك وقالوا: *"كيف يكون طالوت ملكا علينا ونحنُ أولى منه؟ فهو ليس من سُلالة الملوك ولا من أبناء الأنبياء، وهو فوق هذا فقيرٌ لا مال له!"* وهذا هو مقياس الخيرية عندهم، انشغلوا بالشكل عن الجوهر.

أين هذا من استجابة الصحابة رضوان الله عليهم؟ وقد أمّر النبي ﷺ عليهم أسامةَ بنَ زيد -رضى الله عنهما-، وهو شابٌ حدَث، وفي الجيش كبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر، فاستجاب الصحابة لأمره. ألا حيّا الله البطولة والرجولة!

نعود إلى قصتنا، فأجابهم نبيّهم بأنّ اختيار القائد ليس من عنده وإنما هو من عند الله تعالى. وقد تميّز طالوت بصفتين أهمّ وأولى من المال والنسب:

١. **الزيادة في العلم**: والعلم ينفع للتدبير وحسنِ القيادة والخبرةِ في شؤون الحرب والسياسة.

٢. **القوة في الجسم**: وهي تبعث الهيبةَ في المنظر والقدرةَ على مواجهة العدو.

وأكّد لهم نبيهم بأنّ مسألة الملك واستحقاق الملك ليس موروثا ولا حصرا على الأغنياء، بل هو عطاءٌ ربانيٌّ يعطيه الله تعالى من يشاء.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨)

لم يرضَ بنو إسرائيل بتولية طالوت عليهم، فأراد نبيّهم أن يرشدهم إلى علامة حسيّة تدلُّ على أنَّ طالوت هو الملكُ المختارُ من عند الله، فقال لهم نبيهم: *"إن العلامة التي تدلّ على مُلك طالوت هو رجوع التابوت إليكم."* والتابوت هو صندوقٌ خشبيٌّ قد فقدوه منذ زمنٍ طويلٍ، وكان معظّمًا وذا قيمة عندهم. وفي ذلك التابوت سكينةٌ تَسكُن بها قلوب بني إسرائيل، وفيه بقيةٌ من آثار آلِ موسى وآلِ هارون. فأتت الملائكة بهذا التابوت تحملُه وهم يرونه عيانًا.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)

أذعن بنو إسرائيل لولاية طالوت لما أتاهم التابوت وانضمُّوا إلى طالوت لقتال عدوّهم. فلما سار طالوت بالجنود متجاوزًا موطنهم وقد أصابهم حرٌّ وعطشٌ شديد، قال لهم طالوت: *"إن الله سيختبرُكم بنَهر يعترضنا في الطريق، ليميّز الكاذب من الصادق، فمن شَرِب من هذا الماء فأنا منه بريء، أمّا من لم يَذق منه شيئا سوى غُرفة واحدة بكفِّه فليَصحبنا!"*

فماذا كانت نتيجة هذا الاختبار؟ فشل أغلب الجيش في الاختبار، لم يصبروا، وشربوا من ماء النّهر وخالفوا الأوامر قيل أن من شرب من النهر أكثر من سبعين ألف. ولم يبق مع طالوت سوى عدد قليل، كم كان عدد هؤلاء القليل؟ ورد في صحيح البخاري أنّ عددهم كعدد من شهدوا بدرًا: ثلاثمائة وبضعةَ عشرَ فقط.

فلما عبر طالوت النهر هو والذين صبروا معه، عاينوا جيش عدوّهم وكان عددُهم كبيرًا، وأميرُهم يدعى جالوت. قال بعضهم: *"لا قدرة لنا اليوم على مواجهة جالوتَ وجنوده!"* هنا برزت فئةٌ مؤمنةٌ، فئةٌ قليلةٌ مختارة، من أهل الثبات، وقالت: *"ما أكثر ما تغلب الجماعةُ القليلة الجماعةَ الكثيرة! فالأمر كلُّه متعلقٌ بمشيئة الله تعالى وإرادته، نحن صبرنا وتكفينا معية الله إنّ الله مع الصّابرين."*

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)

تواجه الجيشان: جيش الإيمان وجيش الكفر. تضرّع جيش الإيمان لربه قائلين:

رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ بهذه الدعوات جددت هذه الفئة عهدها بربها وتوجهت إلى الله بقلبها وطلبت النصر منه وحده وهي تواجه الجيش العرمرم فيا ترى كيف تقرر مصير المعركة

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)

أستجاب الله تعالى دعاء أهل الإيمان فأنتصر طالوت وجنوده وأنهزم جيش الكفر بتوفيق الله تعالى وجرت الأمور بحقائقها لا بظواهرها وتجلى النصرُ حين قتل قائد الكفار جالوت الطاغية المدجج بالسلاح خر هذا الجبار صريعَ وأنهز جيشهُ ولو هاربين ويبرزُ السياقُ دور شاب مؤمن يافع من شباب بني إسرائيل جرى قتل جالوتَ على يديه يظهر فجاة في خضم الأحداث يدعى هذا الشاب داود عليه السلام وقد منَ الله عليه بعد ذلك بالملك والنبوة وعلمه مما يشاء فألان له الحديد وعلمه صناعة الدروع وعلمه منطق الطير وسخرَ معه الجبال وهذا الفضل الذي أُتيه في الدنيا جزاء إيمانهِ وصبرهِ وثباته فكيف بجزاهِ في الآخرة وقد كانت الحروب والمواجهات بين أهل الخيرِ وأهل الشر ولا زالت وستضل من حكمة الله تعالى في خلقه ومن سنته في ملكه فلولا الصراع بين الحق والباطل ولولا سنة التدافع ولولا مواجهة دعاة الخير لداعاة الشر لفسدت الأرض وعم فيها الشر وأصبحت خرابة وهذا من فضل تعالى على عباده وعلى العالم أجمع.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)

واختُتمت هذه القصّة العظيمة بخطاب الله تعالى لنبيّه ﷺ: *"أنّ ما قصصنا عليك يا محمد! من الأمور الغيبية والقصصِ العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل هي أخبارٌ صادقةٌ لا شكّ فيها وعرفتك بتفاصيلها بعد أن أوحاه الله إليك دليل على صدق نبوتك وأنك يا محمد من جملة الرسل الصادقين الذين أرسلهم الله تعالى رحمة للعالمين

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)

أولائك الرسل الكرام الذين قصصنا عليك يا محمد من أخبارهم هم رسل الله حقًّا وقد فضلنا بعضهم على بعض في المنزلة فمن الأنبياء من خصه الله تعالى بالتكليم بلا واسطة وهو موسى عليه السلام ومن الأنبياء من رفعه اللهتعالى درجات في الفضل والشرف على ما عداه كخاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم إذ أرسل إلى الناس كافة ومنهم من أعطاه الله تعالى المعجزات الباهرات وأحياء الموتى وأبى الكمه والأبرص والأخبار عن المغيبات وقويناه بجبريل الأمين وهو عيسى ابن مريم وهؤلاء الرسل الكرام جاؤو بالهدى ودين الحق وكان مقتضى ذلك أن يؤمنوا الناس جميعًا ويتفقوا على أتباع الرسل من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحة والمعجزات الباهرة ولا يختلفُ ولا يقتتلُ لكن الذي حصل أن الناسَ انقسموا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ألا يقتتلوا وألا يختلفوا لما حصل ذلك ولكن الله يفعل ما يريد لحكمة قدرها ولمصلحة علمها فيهدي الله تعالى من يشاء للإيمان ويضل من يشاء بعدله

اللهم اجعلنا ممن تمسّك بهداك وطلب رضاك! آمين.

الدرس الخامس العشرون
٢٥٤_٢٥٨

فضل الله تعالى الأنبياء بعضهم على بعض، وهذا لا يستدعي الصراع بين الأتباع، فالرّسل وإن كانوا متفاوتين في الفضل، إلا أنهم جميعا أتوا بدعوة واحدة ودينٍ واحد لا إكراه فيه فقد سطع نوره وأشرق ضياؤه.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)

يا أهل الإيمان! بادروا إلى الإنفاق في سبيل الرحمن من مال الله الذي منحكم إيّاه! ادفعوا الزكاة! وأنفقوا في وجوه الخير! وأنتم الآن في فسحة من العمل قبل أن يأتي يومُ القيامة فلا تتمكنون فيه من الإنفاق أصلًا، إذ لا بيعٌ في ذلك اليوم ولا شراء، ولا صداقة تجلبُ لكم نفعا، ولا وَساطة تَدفع عنكم ضرًا إلا أن يأذن الله. والكافرون بالله هم الظالمون لأن الله تعالى خلقهم ورزقهم فاستعانوا بنعمه على الكفر والفسوق والعصيان.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

نحن أمام آية عظيمة عُرفت باسم آية الكرسي. عن أبيّ بن كعب -رضي الله عنه- أنّ النبي ﷺ سأله: "يا أبا المنذر! أيُّ آية في كتاب الله أعظم؟" تأملوا! استعرض أبيٌّ أمامه خلال هذه اللحظة ستّة آلاف ومئتين وستٍ وثلاثين آية، ثمّ أجاب فقال: "آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ". فضرب النبي ﷺ بيده على صدره وقال: "ليهنك العلم أبا المنذر".

قال ابن كثير: "هذه الآية مشتملةٌ على عشر جُمل مستقلّة". فتعالوا معي الآن! لنُلقيَ نظرةً تحليليةً بيانيّة على تركيب جُمَل هذه الآية، لنقف على روعتها. جُمل هذه الآية جملٌ متناسقةٌ، متتابعةٌ، مرتبةٌ في غاية الروعة التي تصل إلى حدِّ الإعجاز. الجُمل العشر، خمس منها بصياغة والخمس الأخرى بصياغة أخرى. في آية واحدة اجتمع الاثبات والنّفي مناصفةً بين جُملها: فخمس منفيّة تقابلها خمس مثبتة. الجمل المنفيّة تنفي النّقص عن الله والجمل المثبتة تثبت الكمال لله. ألاحظتم هذه الدّقة وهذه الرّوعة المعجزة؟ كلُّ هذه الجمل العشر أتت في هذه الآية الكريمة لتجيب على سؤال واحد: من هو الله؟

إنّها آيةٌ تبني في نفس المؤمن التصوّر الصحيح عن الإله المستحقّ للعبادة وهو الله. عندما أضاع اليهود ربّهم فعبدوا العجل، وأضاع النّصارى ربّهم فعبدوا الصّليب، وأضاع الصّابئة ربّهم فعبدوا النّجم، وأضاع المشركون ربّهم فعبدوا الصّنم، أمّا نحن فقد انتشلنا الوحيُ من هذا الضّياع إلى الحقيقة بعيدًا عن تصورات العقل القاصرة، الناشئةِ عن الغموض، وغبةِ الخرافة والأسطورة عليها.

آية الكرسيّ آيةٌ عظيمة يتحسّسُ العبد أمامها عظيم سلطان الله، وجمال الله، وكمالِ الله. آيةٌ جمعت أصول الصِّفات الإلَهية، فاسمع حين يصف الله نفسه ماذا يقول؟! ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: يصف الله نفسه بأنّه الإله المعبود، الذي لا معبودَ بحقٍّ سواه، فهو وحده المستحق أن يُعبد، وهو ﴿الحَيُّ القَيُّومُ﴾: هو حيٌّ له الحياة الكاملة التي لم يَسبِقها عدمٌ ولا يَلحقُها زوالٌ. وهو قيّومٌ قائمٌ بنفسه لا يحتاج إلى أحد، وقائمٌ بأمور خلقه حفظا ورعايةً ورزقا وتدبيرا. فجميع الخلق مفتقرٌ إلى الله، ولا قِوام لهم بغير الله. فاطمئن يا عبد الله! اطمئن! سيأتيك الرّزق والعناية والرّعاية.

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾: ومن كمال حياة الله وقيوميّته أنّها دائمة ومستمرة، فلا يعتريه نعاسٌ ولا يغلبه نوم. فنَم أنتَ قرير العين يا عبد الله! ربّك سيقوم بكل شؤونك، لا ينام ولا يغفل. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾: إنّها صفة مُلكه، فهو سبحانه يملك جميعَ ما في الكون ولا يشاركُه أحد، بل الجميعُ عبيدُه ومملوكون له وتحت قهره وسلطانه. فيا عبد الله! اطلب منه ما تريد! فهو وحده الذي يملك الأمور كلّها، ليس لطلباتِك وأمانيك مع الله منتهى.

﴿مَن ذَا الَّذِي يَشفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذنِهِ﴾: أي لا أحدٌ يتجاسر على القيام بالشّفاعة عند الله إلا بعد إذن الله ورضاه. فعليك بالاجتهاد في الطاعة! فلا تنفع عنده شفاعة أحد لك إلا إذا كان هو راض عنك. فلا تخشَ بأنّ صورتك ستشوّه عنده بسبب وشاية! فهو يعرفك، هو يعرفك لأنّه أعلم بك منك.

ثمّ انتقلت الآية من الملك لكلّ شيء إلى العلم بكلّ شيء. ﴿يَعلَمُ مَا بَينَ أَيدِيهِم وَمَا خَلفَهُم﴾: إنّها صفة علمه سبحانه، فالله تعالى يعلمُ جميعَ أمور العباد، ما مضى منها وما سيأتي. وأحاط علمُه بالكائنات والعوالم، فهو يعلم كلَّ أمورك وكل شؤونك، وبهذا العلم يقدّر لك ما ينفعك، ويرزقُك بالشيء وبالقدر الذي فيه صلاحك، ويكتبُ لك من الهمّ والألم والمحن ما يناسبك. فإنّه يعطيك ويمنعك بحسب علمه لا وفق رغباتك وأطماعه لأنه يعلم وأنت لا تعلم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيءٍ مِن عِلمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾: سائر الخلق لا يعلمون من علم الله تعالى شيئا البتة، فلا يعلمون ما بين أيديهم ولا ما خلفهم ولا غيرَ ذلك، إلا ما أعلمهم الله تعالى بمشيئته. فأنت اطلب العلم منه! يعلّمك الله ويهيئ لك وسائلَ العلم وطرقَ العلم.

﴿وَسِعَ كُرسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرضَ﴾: ولعظمة الله جلّ وعلا واتساع سلطانه، أحاط كرسيُّه، وهو موضع قدميه سبحانه، أحاط كرسيّه السموات والأرض على الرغم من اتساع السموات والأرض وعظمتهما. وفي الحديث الصحيح: "ما السمواتُ السبعُ في الكرسيّ إلا كحَلقة ملقاة بأرض فلاة".

وتُختم آية الكرسي بمعنى مرتبط بالقيّومية: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفظُهُمَا﴾: أي لا يشقُّ على الله تعالى ولا يُعجزه ولا يُرهقه ولا يُثقِله حفظ السموات والأرض وما فيهما من الخلق، بل ذلك أمرٌ سهلٌ ويسيرٌ عليه. فاطمئن يا عبد الله! حقّك محفوظ ورزقك محفوظ وعملك محفوظ.

﴿وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ﴾: هو سبحانه ذو العلوُّ المطلق على كل مخلوقاته، فهو عليٌّ بذاته فوق عرشه، وعليٌّ بقَهْره على خلقه، وعليٌّ بقَدْره لكمال منزلته وشأنه. وهو ﴿العَظِيمُ﴾: العظيم ذو العظمة المطلقة في ذاته وصفاته وسلطانه، وكلُّ ما سواه حقيرٌ بين يديه، صغيرٌ بالنسبة إليه، فلا شيءَ أعظمُ منه سبحانه وتعالى.

آية الكرسي تملأ قلب المؤمن مهابةً من الله، تعلّمنا أنّ قيّوميّتَه لكل شيء، وملكَه لكل شيء، وعلمَه بكلّ شيء. فماذا بقي لغير الله؟ آية الكرسي أقصر طريق يدلّك على الله، ولذلك سنّ النبي ﷺ قراءة آية الكرسي في الصّباح وفي المساء وقبل النوم وأدبار الصلوات وفي الرّقية الشرّعية علاجًا للأمراض

النفسيّة والجسديّة، لأنّها آيةٌ جليلة الشأن، عميقةُ الدلالة، واسعةُ المجال. أرجوك! أدخلها في جدولك! أدخلها في قلبك! أدخلها في عقلك! وسترى فارقًا كبيرًا في حياتك.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

لا يُجبر ولا يكره أحدٌ على الدّخول في الاسلام، فقد اتّضح الحقُّ من الباطل والهدى من الضلال. فالإيمان ينبعث من القلب، ولا سبيل لأحد على قلوب الناس، فمن هداه الله للدخول في الإسلام والكفر بالأوثان وكلِّ ما سِوى الرحمن، فقد تمسّك بأمتن وسائل الحقّ والبرهان التي لا تنقطع للنجاة يوم القيامة. والله سميعٌ لأقوال عباده، عليمٌ بأفعالهم وسيجازيهم عليها يوم القيامة.

وهذه الآية الصّريحة تُسقط دعوى من يقول بأنّ الإسلام انتشر بالسّيف. أقول: في تاريخ الإسلام الطويل لم تُنقل حالةٌ واحدة أجبر فيها فردٌ أو قومٌ على الدّخول في الإسلام كَرهًا. والإسلام هو الدّين الوحيد الذي نادى بأنّه لا إكراه بل هو بلاغ. والجيوش الإسلامية إنّما انطلقت لتحرير البلاد من جبروت وطغيان ملوكها في تلك الفترة، حيث كانت الشعوب تُجبر على اعتناقِ دين ملوكها وتَمنع شعوبها من الاستماع إلى القرآن واعتناق دين الإسلام. فإذا أصرَّ الملوك على ذلك، قاتلهم المسلمون بالسّيف، فإذا حقّق الله لهم النّصر خيّر الناس بين الإسلام وبين البقاء على دينهم ودفع الجزية، وأبقَوا لهم معابدهم وعبّادهم وأحبارهم، وبلاد العراق والشام ومصر شاهدةٌ على هذه الحقيقة. وبهذا ردّ المسلمون الأمور إلى نصابها وأعادوا للشعوب اعتبارَها واختيارَها، لاسيما في هذه القضية المصيريّة التي هي أعظم قضايا الوجود: قضيةُ دين الإنسان ومعتقده. فالإسلام لم يحمل السّيف ليُكره الناس على اعتناقه عقيدةً، وإنّما جاهد ليُقيم نظاما آمنا يأمن في ظلّه أصحابُ العقائد جميعا.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)

الله تعالى يتولى عباده المؤمنين: يوفّقهم وينصرهم ويحفظهم، وهو الذي يُرشدهم إلى الصراط المستقيم فيُخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية. أما الكافرون فأولياؤهم الشياطين ودعاةُ الشّر والفساد: يزيّنون لهم الباطل والضّلال، فيخرجونهم من نور الإيمان والهداية إلى ظلمات الشك والضياع. ومصيرهم المكوث في نار جهنم لا يخرجون منها أبدًا.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)

ذكر الله تعالى لنا ثلاثَ قصص: الأولى في إثبات الخلق والتدبير لله تعالى وحده، والقصةُ الثانيةُ والثالثةُ في إثبات قدرة الله تعالى على إحياء الأنفس والبعثِ بعد الموت. ومناسبةُ هذه الآية: أنّه لما ذكر الله تعالى ولايته لأولياءه وأنه مؤيدهم وناصرهم، ذكر مثالًا لذلك وهو: محاججةُ النمرودِ البابليّ لإبراهيم -عليه السلام- فخاطب الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ: ألم ينته إلى علمك قصّة ذلك الملك الجبار الذي ادعى الربوبيّة وجادل إبراهيم الخليل في ربوبيّة الله تعالى؟ وقد وقع منه ذلك لأن الله تعالى آتى النّمرود مالًا وسلطةً وملكًا، فطغى وتجبّر ووصل به الحال إلى ادّعاء الألوهيّة، فبيّن له إبراهيم صفات الله تعالى قائلًا: ربي هو الذي خلقَ الحياةَ والموتَ في الأجساد، فقال الطاغية عنادا: أنا كذلك أُحيي وأُميت. كيف ذلك؟ رُوي أنه دعا برجلين حُكم عليهما بالإعدام فأمر بقتل أحدهما وقال: هذا أمتُّه، وأمر بالعفو عن الآخر وقال: هذا أحييتُه.

لم ينشغل إبراهيم -عليه السلام- بالردّ على مشاغبة هذا الملك في منطقه السّخيف، وإنّما انتقل إلى حجة أخرى أعظم ليقطع مجادلته فقال له إبراهيم: إن ربي يُطلع الشمس من جهة المشرق فإن كنتَ تستطيعُ أن تغيّر شيئًا في نظام هذا الكون، فأطلع لنا الشمس من جهة المغرب! فما كان من الطاغية إلا أن سكتَ وتحيَّر وانقطع، واستطاع إبراهيمُ الخليل أن يُخرس هذا الفرعون الصّغير، فغلب من قوّة الحجة وأصبح مبهوتا لا يستطيع الجواب. وهكذا ينصر الله تعالى أولياءه ويهديهم للحجة القاطعة بخلاف الظالمين المفترين، فلا يُلهمهم الحجّة والبيان في مقام المناظرة والبرهان. اللهم اجعلنا من أوليائك المنصورين!

الدرس السادس العشرون
٢٥٩_٢٦٩

ساقت سورة البقرة قصصا تدلّ أبلغ الدلالة على قدرة الله تعالى على البعث والنشور، ثمّ بدأت الآيات بالحديث عن أحد ركائز النظام الاقتصاديّ والمالي في الإسلام، ألا وهو الصّدقة والإنفاق في سبيل الله.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

ومع القصة الثانية: قصة الرّجل الذي مرَّ على قريةٍ فارغةٍ من سكانها، قد خَربت وتهدّمت ولم يبق بها أثرٌ للحياة، فقال ذلك الرجل الصّالح متعجبا، وقيل هو عُزَيْر، قال: كيف يحيي الله هذه البلدةَ بعد خرابها؟ فأراه الله تعالى آيةً في نفسه وفي حماره الذي كان يركبه، وفي طعامِه وشرابه الذي كان معه، فأماته الله، واستمر ميتًا مائة عام ثم ردّ الله له الحياة وقال له: كم لبثتَ على هذه الحال؟ أجاب الرّجل: يوما أو أقلّ من يوم، فقال الله له: بل مكثتَ ميتا مائة سنة كاملة وانظر إلى طعامك وشرابك لم يتغيّر بمرور كلّ هذه المدّة! وانظر إلى حِمارك الميّت كيف تفرّقت عظامه وصار هيكلًا من البلى! وقد فعلنا ما فعلنا لتدرك قدرة الله -سبحانه وتعالى- ولنَجعلك علامةً ظاهرةً للناس تدلّ على كمال قدرة الله، وتأمّل في عظام حمارك النخرة كيف نركّب بعضَها فوق بعض، وأنت تنظر، ثم نكسوها لحمًا بقدرتنا، ثمّ نعيدُ فيها الحياة! فلمّا رأى الرّجل تلك الآيات الباهرات أمام عينيه قال: أيقنت وعلمت علم المشاهدة أن الله على كل شيء قدير.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

واذكر حين طلب إبراهيم -عليه السلام- من ربّه أن يريَه كيف يحيي الموتى! فسأله الله وهو يعلم: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ أي: أولم تصدّق بقدرتي على الإحياء؟ قال إبراهيم: بلى آمنت ولكني أردتُ أن يزداد إيماني برؤية ذلك ببصري، فقال الله له: خذ أربعةَ طيور! فضُمهنَّ إليك! ثم قطعهنّ! ثم اخلط بعضَهنَّ ببعض! ثمَّ فرّق أجزاءهنَّ على رؤوس الجبال! ثمّ نادهنَّ يأتينَك مُسرعات! واعلم يا إبراهيم أنّ الله تعالى عزيزٌ في ملكه، حكيمٌ في تدبيره وصنعه! ذكر المفسّرون: أنّ إبراهيم -عليه السلام- عمد إلى أربعةٍ من الطير فذبحهنّ ثم قطعهنّ ونتّف ريشَهُنَّ، وخلط بعضهنَّ ببعض ثم قسّمهنّ أجزاءاً، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، وأخذ رؤوسهنّ بيده ثمّ دعاهنّ، فجعل إبراهيم ينظر إلى الريشُ يطير إلى الريش، والدمُ إلى الدم، واللحمُ إلى اللحم، والأجزاءُ من كل طائر يتصلُ بعضُها إلى بعض حتى قام كل طائر على حِدَته وأتى يمشي إلى إبراهيم سعيا ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم -عليه السلام-.

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)

ذكرت سورة البقرة ميادين الجهاد الثلاثة: الجهادُ باليد لمنع أهل الباطل من الاعتداء، والميدان الثاني: الجهاد باللسان عن طريق مناظرة أهل الضلال بالحجة والبرهان، وفي الآيات التالية يذكر الله تعالى الميدان الثالث، وهو: الجهاد بالمال بإنفاقه في وجوه الخير. وهو أحد ركائز النظام المالي والاقتصادي الإسلامي، والذي ينطلقُ من منظور الإسلام للإنسان والكون والحياة. والآيات التالية ذكرت بعض أصول الصّدقة ومبادئها، سأذكرها في صورة سنابل:

السنبلة الأولى: مضاعفة ثوابِ المُنْفِقِ في سبيل الله، وقد ضرب الله تعالى لنا في ذلك مثلًا. فمثل ثواب الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله ومرضاته كمثل حبة، حبة واحدة، زُرعت فنبتت منها سبعُ سيقان، في كل ساق سنبلة، وفي كل سنبلةٍ مائة حبة. الله أكبر! هكذا يضاعف الله تعالى ثواب الصّدقة ويزيدها أضعافا لمن يشاء من عباده. والله واسعُ العطاء والفضل، عليمٌ بأعمال العباد ونياتهم وسيجزيهم عليها بما يستحقّون.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)

السنبلة الثانية: تحريم المنّ والأذى حال الإنفاق، فالمنفقون المخلصون يحسنون القصد في الصدقة، بأن تكون لوجه الله لا يعقبُها ما يفسدها من المنّ بها على السائل كأن يتفاخر عليه ويعدّد عليه إحسانه، ولا أذيةً له قوليةً أو فعليةً. فإن اجتنبوا ذلك فلهم الثواب من ربهم ولا يعتريهم فزع يوم القيامة، ولا يصيبهم حُزنٌ على ما فاتهم من أمور الدنيا.

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)

السنبلة الثالثة: الجود بالنّفس أولى من الجود بالمال، فقولٌ طيبٌ تُدخِل به السرور على قلب إنسان أو عفوٌ تبذله لمن أساء إليك، سواءً أكان السائلُ أم غيره، خيرٌ عند الله تعالى وخير عند النّاس من صدقة يعقُبها تعييرٌ أو إيذاءٌ أو إذلال للسائل. فتركُ الصدقة وردُّ السائل بلطفٍ خيرٌ من إعطائه صدقةً مع المنّ عليه. والله عز وجل غنيٌّ عن صدقةٍ مصحوبةٍ بالأذى، حليمٌ على من عصاه لا يعاجله بالعقوبة.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)

السنبلة الرابعة: الصّدقة المقبولة هي ما كانت لله. نادى الله تعالى عباده المؤمنين: يا أيها الذين آمنوا لا تُحبطوا ثوابَ صدقاتكم بالمنّ والأذى! فتكونون كالمرائي الذي يُبطل أجر إنفاقه بالرياء لينال حظّه من المديح والثناء في الدنيا. ومثل هذا المرائي كمثل صفوان أي كحجر كبير أملس عليه تراب، والتراب هنا يشير إلى أثر النفقة والبذل، فأصاب هذا الحجر مطرٌ شديد أزال ما عليه من التراب فتركه صلدًا، أي أملس ليس عليه شيء من التراب.

وهكذا حال المنفقين رياءً، يظنّون أنَّ لهم أعمالًا صالحةً عملوها في الدنيا، فإذا كان يومُ القيامة اضمحلت وذهبت، وذهبت أجورُ صدقاتهم، لا يستطيعون الانتفاع منها بشيء. والله تعالى لا يوفّق الكافرين إلى طريق الخير والرشاد ولا يهديهم إلى ما ينفعهم في أعمالهم ونفقاتهم.

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)

السنبلة الخامسة: بيان حال المنفقين. وبدأ ببيان حال المنفق المخلص، فمثل المنفقين أموالهم طلبا لمرضاة الله تعالى، منشرحةً بالصّدقة نفوسهم، مَثَل هؤلاء كمثل بستان كثير الشجر، وهو بمكان مرتفع من الأرض، أصاب هذا البستان مطرٌ غزير فأخرجَ ثمارا جنيّة مضاعفة، ولخصوبة تربة هذا البستان، فإنها وإن لم يصبها مطر غزير، فإنّ الماء الخفيف القليل، يكفيها لتُخرج أطيب الثمر. هذا حال المؤمن، معطاءٌ على كل حال، إن أصابه خيرٌ كثيرٌ أنفق كثيرا وإن أصابه قليلٌ أنفق على قدر سعته، فخيره دائم وبرُّه لا ينقطع. والله لا يَخفى عليه شيءٌ من أعمال العباد، يعلم حال كلٍّ من المخلص والمرائي وسيُجازي كلا بما يستحق.

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

إكمالًا لبيان حال المنفقين، ورد في هذه الآية الكريمة حال المنفقِ رياءً أو منًّا وأذى. وتبدأ الآية باستفهام: أيحبُّ أحدُكم أن يكون له بستانٌ فيه نخيلٌ وأعنابٌ تجري الأنهارُ بين أشجاره وينبُت فيه من كلّ الثمار، فأصاب صاحبَ البستان وهنُ الشيخوخة فأقعده عن الكسب، وله ذريةٌ من ذكور وإناث صغار، لا يقدرون على العملِ وتصريفِ أمورهم، وبينما هم على هذه الحال، أصابَ هذا البستان ريحٌ عاصفةٌ شديدةٌ معها نارٌ فأحرقت الثمار، وخرّبت الأشجار. كيف يكون حالُ الرجلِ الكبيرِ وحال أولادِه من البؤس والحيرة والغمِّ والحسرة؟ هذا هو حال المنفق لأمواله بغير إخلاصٍ لله، يخسرها كلَّها في وقتٍ هو أحوج ما يكون إليها من حاجة الرجل العجوز وأطفاله الصغار، وذلك يوم القيامة. إنه لتصويرٌ قرآنيٌّ في أسمى درجات البلاغة والتأثير، وفي أرقى ألوان التأديب والتهذيب. بمثل هذا البيان الواضح يبيّن الله تعالى لكم آياته وهداياته في سائر أمور دينِكم لكي تتفكروا فيها، فتهتدوا على ضوئها إلى ما فيه سعادتُكم.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)

عقيدة المسلم في المال بأنّ المال هو مال الله، والإنسان هو مجردُ مستخلَف فيه، ولذلك هو مسؤولٌ أمام الله عن هذا المال، كسباً وإنفاقاً، وبالتالي فلا يجوز أن يكتسب المال من معصية أو ينفقَه في حرام ولا فيما يضرّ الناس.

ومعنا *السنبلة السادسة:* الإنفاق يكون من المال الطيّب الحلال: يا أهل الإيمان! أنفقوا من المال الحلال الطيّب الذي كَسبتموه! وأنفقوا مما أخرجنا لكم من الأرض من زروع ومعادن! وإيّاكم أن تقصدوا الخبيث الرديء فتُنفقوا منه! ولو أعطي هذا المالُ الخبيثُ لأحدكم لما أخذه، إلا تساهلًا وأغمضَ البصر عن النظر في رداءته، فكيف تؤدّون منه صدقةً لغيركم؟ واعلموا أن الله تعالى غنيٌّ عن صدقاتكم، حميدٌ يجازي المحسن بأحسن الجزاء!

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)

السنبلة السابعة: التصديق بموعود الله تعالى للمنفق. يا أهل الإيمان! احذروا من وسوسة الشيطان! فإنّه يخوّفكم من الفقر ليمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، ويدعوكم إلى البخلُ والشّح فتنفقوا أموالكم في الشرّ والفساد. أمّا الله تعالى فهو يعدكم عفوا ومغفرةً لذنوبكم، ويعدكم بركةً ونماءً لأموالكم حال إنفاقكم في سبيل الله. والله واسع الجود والعطايا، عليمٌ بنفقاتكم كلّها قليلها وكثيرِها فيجازيكم عليها.

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)

الله تعالى لا يُعطي المغفرة وحدها ولا المالَ وحده، بل من عطاياه العظيمة: نعمة الحكمة، والحكمة هي العلم النافع والعمل الصالح. ومن الحكمة: حُسن إدارة نعمة المال. ومن رزقه الله تعالى الحكمة فقد أعطيَ خيرًا كثيرًا. وما يتّعظُ بهذه التوجيهات القرآنية وينتفعُ بثمارها إلا أصحاب العقول النيّرة التي عرفَت الحقّ وعملت به. اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين!

الدرس السابع العشرون ٢٧٠_٢٨١

الصدقة عطاءٌ وسماحة، وتكافلٌ وطهارة، والوجه المقابل لها هو الرّبا: استغلالٌ وشحٌ وقذارةٌ ودنس. فالرّبا جريمة تهدّد كيان المجتمع وتقوّض بنيانه، وآيات سورة البقرة حملت حملةً عنيفةً على المتعاملين بالرّبا.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠)

وتمضي الآيات مُرغّبةً في الصدقة والبذل في شتى وجوه الخير.**

فيا أهل الإيمان! ما تصدّقتم به من صدقةٍ قليلةٍ أم كثيرةٍ، أو طاعة ألزمتم أنفسكم بها، فإن الله تعالى يعلم كلّ ذلك، ويعلم نيتكم فيها وسيجازيكم عليها يوم الحساب. أمّا الذين ظلموا أنفسهم في هذا الجانب بمنع زكاة أموالهم، أو بذلوا أموالهم رياءً، أو أنفقوها في ما يُغضب الله، أو لم يوفوا نذورهم، فهؤلاء ليس لهم أنصارٌ يدافعون عنهم يوم القيامة.

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

السنبلة الثامنة في الإنفاق في سبيل الله: مشروعيّة الإنفاق سرّا وعلانية. فيا أيها الباذلون المنفقون! إن تُظهروا صدقاتكم وتجاهروا بها فنِعم هذا العمل، ولا سيما إن قصدتم به أن تكونوا قدوةَ خيرٍ لغيركم، وإن تكتموها وتُعطوها للفقراء سرًا، فهو خيرٌ لكم، ويمحو قبيحَ آثامكم بجميلِ أعمالكم، ولا تقلقوا إن أخفيتم أعمالكم أو أظهرتموها! فإن الله بما تعملون خبير، يعلم السرَّ وأخفى. ويظهر في الآية ترغيبٌ في الإسرار لبُعد صاحبه عن شائبة الرياء. وفي الحديث: "صدقةُ السرّ تطفئ غضب الرّب".

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)

السنبلة التاسعة: مشروعيّة الصّدقة على المحتاج مسلما كان أم كافرا. وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أنّ الصّدقة في أول الأمر كانت لا تحلّ إلا للمسلمين فحسب حتى نزلت هذه الآية وأُذِن بالتصدّق على الكفّار صدقة تطوع لا زكاة. ومعنى الآية: يا محمد! ليس عليك هداية الخلق فهداية التوفيق بيد الله، يُنعم بها على من يشاء. وما تنفقوا من خير، قليلٍ أم كثير نفعه راجعٌ إليكم، ولا تجعلوا إنفاقكم إلا لوجه الله لا لغرضٍ دنيويّ! وما تنفقون من مالٍ في الدنيا، سواء أكان على مؤمنٍ أم كافر، يُرَدُّ أجره عليكم كاملاً يوم القيامة من غير نقصان.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

السنبلة العاشرة: بيان مصرف النّفقات. فقد عمّم الله تعالى الأمر بالنفقة لجميع المحتاجين لكن ذُكر في هذه الآية أولى الناس بالصّدقات، فوصفهم الله تعالى بخمس صفات: أوّلها: الفقر، والثاني: من أوقفوا حياتهم على فعل الطاعات: كالمجاهد في سبيل الله مثلاً. الثالث: العاجز عن السّفر للعمل والتكسب والتجارة. الرابع: حُسن تعفّفهم عن السؤال حتى يحسبهم الجاهل بحالهم أنّهم أغنياء، لكنَّ الفطِن، صاحب البصيرة، يعرفهم بتواضعهم وبهيئتهم. الخامس: لا يطلبون من الناس بإلحاحٍ. فهؤلاء أولى الناس وأحقُّهم بالصدقات. واعلموا بأنّ ما أنفقتم من خيرٍ، قليلٍ أم كثير، فإن الله تعالى به عليمٌ! وسيجازيكم عليه أعظم الجزاء.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)

يُختم دستور الصّدقة بنصّ عامٍ يشمل كلّ أوقات الإنفاق، وكلّ طرق الإنفاق، وبحكمٍ عام يشمل كل منفق لوجه الله. إنّ الذين يتصدّقون بأموالهم: قليلاً أم كثيرا، في كلّ وقتٍ: ليلًا ونهارا، وفي كلّ حالٍ: سرا وعلانيةً، فهؤلاء لهم أجرهم عند الله. ولا تسَلْ عن عطايا الربّ! حين يَهبها من أحسن عملًا من مضاعفة المال، وراحة البال، وبركة الأعمار، ودخول الجنان، ورضوان الرحمن. فالمنفقون لا يعتريهم فزعٌ في الآخرة ولا يصيبهم حزنٌ في الدنيا فضلًا من الله ونعمة.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥)

رغّبت الآيات الماضية في الصدقة لما لها من أثر إيجابيّ في التكافل بين أفراد المجتمع وسدّ حاجاتهم بلا مقابل، ويقابل ذلك الربا: الكسب الخبيث، ذو الوجه الكالح القبيح، الذي يستغلّ حاجاتِ النّاس ويستغل ظروفَهم، ويتغذّى عليها، بكل قذارة ودناءة فيؤدي إلى انتشار الظلم، وحصول التنافر والبغضاء بين أفراد المجتمع. وهنا يصف الله تعالى حال المتعاملين بالرّبا أنهم حين يقومون من قبورهم يوم القيامة لا يقومون إلا مِثلَ قيام الذي به مسٌّ من الشيطان: حيارى، سُكارى، مضطربين، متخبّطين، يتعثّرون ويقعون، وذلك بسبب أنهم استحلوا أكل الرّبا في الدنيا وقالوا افتراءً: "البيعُ مثل الرّبا" فردّ الله تعالى عليهم: أحلّ الله البيع لما فيه من تبادل المصالح، وحرّم الله الربا لما فيه من الضرر الفادح. فمن بلغه نهيُ الله تعالى عن الربا، فامتنع عنه وتاب إلى الله، فله ما مضى من المعاملات الربويّة ولا يَأثم عليها، "فالتوبة تجبُّ ما قبلها"، وأمره موكولٌ إلى الله، أما من عاد للتعامل الربويّ فأولئك أصحاب النار، الباقون فيها إلى أن يشاءَ الله.

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)

يظنُّ المرابي أن تعامله بالرّبا سيزيد ماله وما علم أن الله تعالى يُذهب بركة ماله ويمحو الخير الذي في ماله، وإن كان في ظاهره كثيرا متزايدا. وفي المقابل ينمّي الله تعالى عز وجل الصّدقة ويُضاعف ثوابها ويزيد البركة في مال المتصدّق، وإن تصدق بالقليل. والله لا يحب كل كفّارٍ أثيمٍ: هو المكثر من ارتكاب المعاصي والآثام، انظروا كيف جمع الله تعالى بين هذين الوصفين! للإشارة إلى أنّ المتعاملين بالرّبا إيمانهم ناقصٌ لارتكابهم هذه الكبيرة القبيحة، أمّا إن استحلّوا الرّبا فقد وقعوا في الكفر، وهم في الحالتين آثمون معاقبون. انظر كيف شدّد الله تعالى في جريمة الرّبا حتى قرنها بالكفر! بينما يتساهل في التعامل بالرّبا كثيرٌ من الناس، والله المستعان.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)

ولأنَّ من أسلوبِ القرآن ذكرُ المسألةِ وما يقابلُها وعرضُ الصورةِ وضدّها، فقد انتقل القرآن الكريم من ذمّ المرابين الآثمين إلى مدح المؤمنين المطيعين، والذين من صفاتهم: الإيمانُ الصّادق، والعملُ الصّالح، وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزّكاة. إيتاءُ الزّكاة، وإيراد هذه الصّفة هنا مقصود لأن الزّكاة

والصّدقة من ركائز النظام الاقتصاديّ الإسلاميّ في مقابل النظام المالي الجاهليّ، القائمِ على القاعدة الربويّة. هذا النظام المالي الذي ينخر في المجتمع ويأكل فيه القويّ الضعيف ولا يبني اقتصادا حقيقيّا. إنهما نظامان مُتقَابِلان: النظام الإسلاميّ مع ما فيه من عطاءٍ ورحمة، والنظام الربوي، مع ما فيه ظُلْمٍ وظُلمة. نظامان مُتقَابِلان لكن لا يَلتقيان في تصور ولا يتفقان في أساس ولا يتوافقان في نتيجة. فالزّكاة نماء والرّبا هدمٌ، الزّكاة وجود والرّبا عدمٌ، والبناء ضدّ الهدم والوجود نقيض العدم.**

ومن ثَمَّ كانت هذه الحملةُ العنيفة ضدّ الرّبا وكان هذا التهديد والوعيد. إنّ الله تعالى يَعِدُ الذين يقيمون حياتهم على الإيمان والصلاح والعبادة والتعاون، أن يحتفظَ لهم بأجرهم عنده ويَعِدُهم بالأمن فلا يخافون، وبالسعادة فلا يحزنون، في الوقت الذي يُوعد أكلةَ الرّبا والمجتمعَ الربويّ بالمحقِ والسَّحقِ، والقلقِ والخوف، والتخبط والضلال.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨)

**ينادي الله تعالى أهل الإيمان ويأمرُهم بالتقوى، ويدعوهم إلى ترك التعامل بالربا فورًا، إن كنتم صادقين في إيمانكم. فلا إيمان بغير طاعة ولا انقياد ولا اتّباع لأوامر الرحمن.

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)

فإن لم تتركوا التعامل بالربا، فاعلموا واستيقنوا بحرب من الله وحرب من رسول الله ﷺ! قال ابن عباس: "يقال لآكل الربا يوم القيامة: خُذ سلاحكَ للحرب"! لماذا؟ لتحاربَ الله. إنّه وعيدٌ يزلزل القلوب، يا للهول! حربٌ من الله ورسوله! حربٌ يقف فيه الإنسان الضعيفُ الفاني ليواجه قوة العزيز الجبار سبحانه. إنّها حربٌ معروفةُ المصير مقررة النتيجة. من يطيق هذا الوعيد؟ وأمّا إن تبتم من الربا ورجعتم إلى ربكم، فلكم أصول أموالكم التي دفعتموها، لا تَظلِمون أحدًا بأخذ الزيادة منه، ولا تُظلَمون بأن يَنقص من مالكم شيئا. وهكذا يعيش المجتمع الإسلامي متآلفًا، يأمن كلُّ واحدٍ على حقِّه ولا يخاف من أخيه بخسا ولا جَورا.**

وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)

بينما النظام الرّبوي الجاهليّ يدعو إلى استغلال حاجات الناس، إذ بالإسلام يحضُّ المُقرضَ على كريم الخصال، ومنها الحِلم والعفو. فيا أيُّها المؤمنون! إن كان لكم مالٌ عند مُعسرٍ فقير لا يستطيع إيفاء دينه، فأعطوه مهلةً حتى تتيسرَ أحواله ويجدَ ما يقضي به دينه! ولا تُحرجوه بالمطالبة وهو لا يستطيع! وإن عفوتم عن حقّكم فهو أكرم وأفضل، بل هو خيرٌ عظيم ليس للمعسر فقط، بل هو خيرٌ للمعسر وخيرٌ لمن عفا، وخيرٌ للمجتمع كلّه ليقوم على التراحمِ والتكافلِ الاجتماعيّ. إنّه خيرٌ عظيمٌ لو يعلم هؤلاء ما يعلمه الله من سريرة هذا الأمر. في الصحيح: أنّ تاجرًا كان يُداين الناس، فإذا رأى معسرا قال لفتيانه الذين يعملون عنده: تجاوزوا عنه لعلّ الله أن يتجاوزَ عنّا! فلمّا مات تجاوز الله عنه. انتهى الحساب وانتهى الموقف الطويل الذي لطالما يخاف منه المتّقون يوم القيامة بكلمة يقولها الله لملائكته: "تجاوزوا عنه"! طويت صحيفته وانتهى حسابه، وتجاوز الله عنه، وأدخله الجنّة. كما كان هذا التّاجر يتجاوز عن المعسرين في الدّنيا تجاوز الله عنه في الآخرة، والجزاء من جنس العمل.

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

بعد الحديثِ المستفيض عن المال، وطرقِ جمعه وإنفاقِه والتعاملِ معه، يأتي التعقيب المخيف ليتذكر النّاس أنَّ وراءهم يومًا ثقيلًا يحاسبون فيه. واتقوا يا عباد الله يوما ستَتركون فيه الدنيا وراءكم! ستتركون الدنيا وأموالها ومشاغلها وتُرجعون إلى الله، ثم تُعطى كلُّ نفسٍ جزاء ما كسبت من خيرٍ أو شرّ، وهم لا يُظلمون. فذاك يومٌ يكون فيه الحكم والميزان بيد ملك الملوك جلّ في علاه. فما أجدر بالمؤمن أن يتأثّر ويتوقّف! ليراجع كلّ معاملاته وحساباته قبل القدوم على الله.

بهذه الآية العظيمة اختُتمت آيات القرآن. بهذه الآية العظيمة انقطعَ الوحي من السّماء. بهذه الآية العظيمة تّمت الرسالة. مات النبيُّ ﷺ بعد نزول هذه الآية ببضع ليال. نعم، هذه الآية هي آخر آيةٍ نزلت من القرآن وحُقَّ لها أن تكون. نسأل الله تعالى أن يهدينَا سُبل الهدى وأن يعاملنا برحمته وعفوه! آمين.

الدرس الثامن العشرون

لما ذكر الله تعالى الإنفاق وجزاءه والربا وخطره، ناسب أن يذكر التعاملَ بالدَّيْنِ المُؤَجَّل ويبيّنَ وسائلَ حفظه، ثمّ خُتمت سورة البقرة بالكلام على المؤمنين وبيانِ حالهم ودعائهم كما بدأت السورة بالكلام عنهم.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ

لما ذكر الله تعالى البيوعَ والقروضَ الرّبوية ناسب أن يذكر بعدها القرضَ الحسن بلا ربا ولا فائدة والذي يسمّى: الدَّيْن، مع ذكر الأحكام الفقهيّة الخاصّة بكتابة العقود والإشهاد عليها ومسائل الرّهن.

وآية الدَّين هذه، أطول آية في القرآن، مما يدل على عناية الإسلام بالنُظم الاقتصادية. وسنقسمها إلى ثلاثة أجزاء. ذكر الله تعالى ثلاث وسائل لتوثيق الدُّيون والمعاملات المؤجلة:

١. **الكتابة**

٢. **الإشهاد**

٣. **الرّهن**

أولًا: كتابة الدين

- يا أهل الإيمان! إن تعاملتم بالدَّين والمعاملاتِ المؤجلة، فاكتبوها؛ لأن ذلك أوثق لمقدارها وميقاتها.

- يشترط في الكاتب أن يكون عادلًا مأمونًا.

- لا يَمتنع أحد من الكتابة بالعدل كما علّمه الله، بغير زيادة ولا نقصان.

- الشخص المَدين الذي عليه الحق (المُقْتَرض) هو الذي يُملِل على الكاتب لأنه المقرّ المشهود عليه، وليتّق الله تعالى في الإملاء ولا يُنقص من الحق شيئًا.

- إن كان المَدين المقترض سفيهًا لا يحسن التصرف أو ضعيفًا (لصغر أو كبره أو جنونه)، أو لا يستطيع الملاء بنفسهِ فليُملل بالعدل وليّه أو وكيله المسؤول عنه.

وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا

في هذا الجزء من آية الدين ذكر الله تعالى الوسيلة الثانية لتوثيق الديون والمعاملات المؤجلة وهي الاشهاد.

ثانيًا: الإشهاد: وإليكم المسائل الواردة في هذا الجزء من الآية.

- إضافة إلى كتابة الدين اطلبوا شهادة رجلَين عاقلين عادلَين زيادة لتوثيق المعاملة.

- إذا لم يكن الشاهدان رجلان، فليشهد رجلٌ وامرأتان ممن يُوثَق بدينهم وعدالتهم حتى إذا نسيت أحدى المرأتين في الشهادة تقوم الأخرى بتذكيرها.

- لا يجوز للشّهود الامتناع عن أدا ء الشهادة؛ إذا طُلبت منهم الشهادة على الدين لأن كتمان الشهادة معصية.

وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)

الدين مهما كان صغيرًا أو كبيرًا لا تملو من كتابته حتى يقطع النزاع.

- ما أمرناكم به من كتابة الدين أعدلُ في الحكمِ وأثبتُ للشهادةِ وأقربُ ألا تشكو في نوعِ الدينِ ومقدارهِ ومدته.

- ما تقدم من الأحكامِ أنما هي في الدين والمعاملات المؤجلة أما في التجارة الحاضرة التي تكونُ يدًا بيد والثمن مقبوضًا فلا بأس بعدم كتابتها لعدم الحاجة إليها ويشرع لكم الاشهاد منعًا لحصول الاختلاف والنزع.

- لا يجوزُ لكاتبٍ أو شاهدٍ أن يضرَ أحد المتعاقدين بزيادةٍ أو نقص كما لا يجوزُ للعاقدين أن يضروا كاتبٍ أو شاهدًا بأي نوعٍ من أنواعِ الضرر فألحاق الضرر هو فسوقٍ وخروجٍ عن طاعة الله وختمت آية الدين بختامٍ عظيم وعلى عادة القرآن في إيقاظ الضمائر وتحريك المشاعر دعت المؤمنين إلى تقوى الله **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** فتقوى الله تعالى تفتح قلوبكم للمعرفة وتسهل طرق التعليم والله تعالى يعلمكم ما تصنون بن أنفسكم ما تصنون به أموالكم وتوثقون به معاملاتكم فشرعهُ شرع الحكيم الخبير العليم بكل شيء يأ أهل القرآن هل رأيتم من نظامِ كهذا النظام في الضبط وتوثيق وحفظ الحقوق أتى به القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا.

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

في هذه الآية ذكر الله تعالى الوسيلة الثالثة لتوثيق الدينِ والمعاملات المؤجلة وهي طريقة الرهن.

ثالثًا: الرهن: هو توثيق دينٍ بعينه وإليكم المسائل الواردة في هذه الآية.

- إن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ولم تجدوا كاتبًا، يكتب لكم وثيقة الدين فليكن الرَّهن بدلًا من الكتابة يقبضه صاحب الحق وثيقةً لدينه فهذا الرهن يقومُ مقام الكتابة.

- إن وَثِقَ بعضكم ببعض فلا تلزم الكتابة ولا الإشهاد ولا الرهن، ويكون حينئذ الدَّين أمانةً في ذمة المَدين المقترض وعليه أن يتقي الله تعالى في هذه الأمانة.

- إن دعيتم إلى أداء شهادة فلا تكتموها فإن كتمانها أثم كبير يجعل القلب أثمًا وصاحبه فاسقًا والله مطلع عليكم لا يخفى عليه شيئًا من أعمالكم وسيجازيكم عليها.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

لما ذكر الله تعالى تكاليف كثيرة في سورة البقرة ناسب ختم السورة بهذه الآيات فالله تعالى مالكٌ لما في السموات وما في الأرض فهو يكلف من شاء بما شاء وهو مطلعٌ على ما في السموات وما في الأرض ومطلعٌ على أعمالكم أيه العباد سواء التي أظهرتموها أم التي أسررتموها فهو يعلمها ويحاسبكم عليها فيعفو عمن يشاء ويعاقب من يشاء وهو القادر على كل شيء لا يسأل عما يفعلُ وهو يسألون هذه الآية جاءت على سبيل الوعيد والتخويف بأن العبد محاسبٌ على كل شيء حتى ما يدور في نفسه وعلى خطرات قلبهِ الأمر الذي أخاف الصحابة في صحيح مسلم أنه لما نزلت هذه الآية **اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللهِ، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ "، أنصرف الصحابة وبدو يرددون هذه الآية حتى ذلت بها ألسنتهم وانصاعت لها نفوسهم فأنزل الله تعالى في أثرها الآية التالية.**

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)

صدق النبي محمدعليه الصلاة والسلام وصدقَ المؤمنون معه بكل الذي أنزلهُ اللهُ من القرآن والوحي وكلٌ آمنوا بالأركانِ العظيمة من وحدانية الله تعالى والأيمان بملائكته وكتبه وجميع رسله فلا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهودُ والنصارى بل نؤمن بجميع الأنبياء بدون تفريق بينهم وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا أي سمعنا قولك وأطعنا امرك فنسألك يا ربنا المغفرة من الذنوب وإليك المرجع يوم الحساب فلما قال الصحابة هذا الدعاء وأظهروا السمع والطاعة والاستجابةَ لأوامر الله نسخ الله تعالى الآية السابقة وخفف عنهم وأنزل الآية التالية.

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

أي لا يكلف الله تعالى أحدًا فوق قدرته وطاقته لكل نفسًا جزاء ما عملت من قدم خيرًا فله ثوابهُ بدون أن ينقص منه شيء ومن أقترف شرًا فعليه وزرهُ ولا يحملهُ عنه غيره وقال الرسول والمؤمنون رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا أي لا تعذبنا يا الله بما يصدر عنا بسبب النسيان والخطأ ولا تكلفنا بالتكاليف الشاقة التي يثقل علينا حملها كما كلفت بها بني إسرائيل وغيرهم من الأمم السابقة كقتل النفس حال التوبة ولا تحملنا ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف وامحو عنا ذنوبنا وأستر سيئاتنا وارحمنا برحمتك أنت يا الله ناصرنا ومتولي أمورنا فلا تخذلنا **فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ولما دعاء الصحابة بهذه الدعوات قال الله لهم عند كل دعوة قد فعلت قد فعلت قد فعلت هاتان الآيتان من أروع آيات سورة البقرة فالتعاليم كثيرة والتكاليف عديدة والمنهج طويل فكان لأبد من آية الدعاء ليأتي العون من الله للسير على هذا المنهج أنه الختام الذي يلخص السورة ويلخص الحقيقة حقيقة الخلافة ويلخص صفاء العقيدة ويلخص صدق المؤمنين وحالهم مع رب العالمين بهاتين الآياتين الكريمتين تختتم سورة البقرة وما أجمله من ختام ملائمًا لمميزات أمة الخلافة آيتان تمثلان بذاتهما تلخيص وافيًا لأعظم

قطاعات السورة يصلح ختامًا لها متناسقًا مع موضوعها وجوها وأهدافها صحّ عن النبي ﷺ:«أُعطيتُ خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهنّ نبيٌّ قبلي ». يا الله وصح عنه أنه قال «مَن قرأ الآيتَينِ من آخر البقرة في ليلة كَفَتاهُ» حفظته من الشرّ وحمتاه من المكروه وقيل أغنتاه عن قيام الليل ولذلك لما فيهما من معاني الإيمان وحقيقة الإسلام وحسن الالتجاء إلى الرحمن والاستعانة به وطلب مغفرته والرحمة منه. ولقد كان ختام سورة البقرة متوافقًا مع بدايتها فقد بدأت سورة البقرة بذكر أوصاف المؤمنين وأصول الإيمان التي أخذوها بها وختمت السورة بالشهادة للمؤمنين بصدق إيمانهم وتلقينهم دعاء يعينهم على تحمل تكاليف هذه العقيدة ويرفع عنهم الحرج ويخفف عنهم عباء الخطيئة والنسيان وبهذا يلتئم شمل السورة أفضل التئام بمنتهى الكمال وغاية الاتقان فسبحان من أزل القرآن وبعد فقد وصلنا إلى ختام تفسير سورة البقرة هذه الوثيقة الربانية التي اشتملت على ما يهدي القلوب ويصلح النفوس من عقائد صحيحة وتشريعات حكيمة وتوجيهات سامية وآداب حميدة وقصص هادفة من شأنها أن تغرس فينا الإيمان والأخلاق والاتعاظ والاعتبار حتى نكون ممن رضي الله عنهم ورضاهم والله نسأل أن ينفعنا بسورة البقرة وإن يرزقنا حفظها وتلاوتها وفهمها وتدبرها والعمل بها ونجعلها وردًا لنا نحييها في بيوتنا اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وذَهاب همّنا. وصلى الله على محمد وآله وصحبه.

الدرس التاسع العشرون الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد،**

ولأن سورة البقرة سورة طويلة، كان فيها القدر الأكبر من الموضوعات، فكان لزامًا علينا أن نجعل هذه الحلقة خُلاصةً لسورة البقرة. نلخّص فيها ما عشناه في رياض هذه السورة حتى نستدرك بها ما فات، ونَذكُر الحوادث مرتّبة، ونَطرح المواضيع مختصرة، ونَربط بها بين أطراف القضايا لتكون جامعةً لكل ما قلناه في تفسير هذه السورة.

فسورة البقرة بكاملها تعتني بالتوجيهات والتشريعات التي ينبغي أن تسير عليها أمّة الخلافة، من هنا كان التصنيف ابتداءً بذكر أصناف الناس: مؤمن وكافر ومنافق، مع ذكر صفات كلّ صنف للمقارنة بين أهل السعادة وأهل الشقاء. ثمّ أتى نداءٌ عامٌ من الله تعالى لهؤلاء وللبشرية جمعاء: أن تختار الإيمان فتعبد الله تعالى وحده لأنه الربُّ الذي خلقهم وخلق آباءهم من قبل.

وكان منطقيًا بعد ذلك الحديثُ عن الخلقِ والتكوين، من خلق البعوضة إلى خلق الإنسان. فتحدّثت السورة عن بدء الخليقة، فذكرت قصة خلق أبي البشر آدمَ -عليه السلام- والصّراع الدائم بين آدمَ وبنيه وإبليسَ وجنده. وهذا الصّراع ظهر في صورة عداوةٍ مُرةٍ بين محمد ﷺ وبين بني إسرائيل الذين آثروا أن يكونوا جندَ إبليس في معركته ضدَّ الحق.

لذلك تناولت سورة البقرة الحديثَ بإسهابٍ عن بني إسرائيل، لأنّ اليهود كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة، ففتحت السورة معهم عدّة ملفات: ملف الوصايا، وملف النعم، وملف الجرائم، وملف الادعاءات، وملف المواثيق التي أخذها الله تعالى عليهم.

فبدأت السورة بذكر عشر وصايا لبني إسرائيل وعلى رأسها: تقوى الله تعالى. ثمّ ذكّرتهم السورة بعشرِ نعم وفي مقدمتها: إنقاذُهم من بطش آل فرعون. كما فتحت السورة ملف جرائمهم وقبائحهم: كعبادة العجل، وتحريف الكلم عن مواضعه، والتلاعبِ بأحكام الله، وتحريف التوراة، ونقضهم للمواثيق، وعدم الصّبر على الطعام، والكفر بآيات الله، وإيذائهم للأنبياء إما بالتكذيب أو القتل. وقد لزمهم الذلُّ والهوان ورجعوا بسَخَطٍ من الرحمن بسبب ما اقترفوه من الجرائم والخطايا.

وقد ورد في السورة أحدُ أشهرِ القصص في القرآن، وهي قصةُ البقرة وأحداثُها المثيرة، التي بدأت بجريمة قتل وانتهت بمعجزة الإحياء. وذكرت سورة البقرة بعض المواثيق التي أخذها الله تعالى على بني إسرائيل وعلى رأسها: أن يعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له.

كما ناقشت سورة البقرة بعض ادعاءات بني إسرائيل كقولهم بأنّ النار لن تمسّهم إلا أيامًا معدودة، وادّعائهم بأنّ الدار الآخرة خالصةٌ لهم من دون الناس. وذكرت السورة موقف اليهود من النبي محمد ﷺ، ومن الملائكة الكرام، ومن القرآن الكريم، وأنهم بَدَل أن يتبعوا الرسول والقرآن، اتبعوا السحر وما تتلوا الشياطين على ملك سليمان.

ولقد بين الله تعالى أنّه وصل الحال بأهل الكتاب ومشركي العرب أنّهم لا يحبّون أن ينزل على المسلمين أي خيرٍ من ربهم كنعمة القرآن والرّسالة والهداية بسبب الحسدِ، والسَّخَطِ على الشريعة الجديدة وأتباعها، والله المستعان.

كما كشفت سورة البقرة حقيقة العلاقة بين اليهود وبين النصارى وتكفيرِ بعضهم لبعض. وكشفت السورة حقيقةَ نظرةِ اليهود والنّصارى للمسلمين، فهؤلاء لن يرضَوا عنّا حتى نترك الإسلام الحقّ ونتبع دينَهم المحرّف، فهي معركة عقيدة في صميمها.

ومن المُلفت جدًا أنّ سورةَ البقرة تناولت الحديث عن بني إسرائيل فيما يزيد على ثلثِ السورة، وفي هذا رسالةٌ لأمة محمد ﷺ، رسالة توجيهٍ وتنبيهٍ، توجيهٌ للتمسّك بأسس الخلافة الحقّة، وتحقيق التقوى، وحُسن الاستجابة لله تعالى، ورسالة تحذيرٍ من أن نحذُوَ حذوهم، فنُستبعد كما استُبعدوا، ونُلعن كما لُعنوا.

ومن بني إسرائيل انتقلت السورة إلى إبراهيمَ -عليه السلام- فقصّت علينا نجاحَه في الابتلاء، واختياره إماما للناس، وقصةَ بنائه لبيت الله الحرام بمعيّة ولده إسماعيل-عليهما السلام- ودعائهما بأن يبعث الله تعالى في العرب رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، حيث الإشارة إلى النبي محمد ﷺ، وأمته الوارثة.

وبيّنت السورة أنّ ملة إبراهيم هي ملة الأنبياء أجمعين، ومن يرغب عنها إلا من سفه نفسه وهو في الآخرة من الخاسرين. كما أبطلت السورة دعوى أهل الكتاب أنّ الأنبياء كانوا على دينهم.

ثمّ انتقل السّياق في سورة البقرة من خطاب أهل الكتاب إلى خطاب أهل الإسلام. فكانت مسألة تحويل القِبلَةِ، وهي أوّل مسألة عملية اختلف فيها القومان، إذ أخذ السفهاء من اليهود والمنافقين يثيرون الشكوك حول تحويل □□لقبلة، فردّ الله تعالى عليهم وبيّن بأنّ مسألةَ القبلةِ هي من شعائر الملةِ، ومن خصائصِها الدينيّةِ، وأنها من إتمام النعمة على هذه الأمة، ذاتِ التميّز والوسطيّة والخصوصيّة.

وبعدها بيَّنَ الله تعالى وظائفَ الرسول ﷺ وهي كما جاءت في دعاء إبراهيم -عليه السلام-: تربيةُ الأمة، وتعليمُها القرآنَ والسنّةَ، وتعليمُها ما لم تكنْ تعلمُ من الاعتقادات، والعبادات، والمعاملات. ثم أمرهم الله تعالى بذكره وشكره تعالى، ودعاهم إلى الاستعانة بالصبر والصلاة على النّهوض بمُهمّات الأمور.

ثمّ ذكر الله تعالى مآثم اليهودِ وغيرِهم ممن يكتمون العلم والهدى، وأنهم مُبعدون عن الله تعالى وعن رحمته، واستثنى منهم من تاب وأصلح وبيّن، وسجَّل الله تعالى اللعنةَ على من مات على كفره.

وبعدها ذكر الله تعالى الأساس الأعظم لهذا الدين وهو توحيد الألوهية بتخصيص الخالق -سبحانه وتعالى- بالعبودية. وقرَن ذلك بالتذكير بآياته الكونيّة الكثيرةِ ثم أتى بعده بنقيض التوحيد وهو الشرك باتخاذ الأنداد، وشنَّع على المقلّدين والمشركين فجرّدهم من حلية العقل وشبههم بالصم، البكم، العمي.

وفي سياق كلّيات الدّين المجملة، أوجب الله تعالى على المسلمين أكل الطّيبات مما أحلّ وترك الخبائث ممّا حرّم إلّا لمن اضطرّ لإبطال ما كان عليه المشركون وأهلُ الكتاب من التحليل والتحريم في المطعومات، الذي هو حقُّ الله تعالى وحده.

وقفى على هذا كلِّه بوعيدٍ للذين يكتمون ما أنزل الله. وختم هذا السياق العام ببيان أصول البرّ وجوامعه ومجامعه في الآيةِ المعجزةِ الجامعة لكلياتِ العقائد والأعمال والأخلاق: ﴿لَيسَ البِرَّ أَن تُوَلّوا وُجوهَكُم قِبَلَ المَشرقِ وَالمَغرِبِ وَلكِنَّ البِرَّ مَن آمَنَ بِاللَّهِ﴾ إلى آخر الآية.

بعد ذلك أخذت سورةُ البقرة شوطًا طويلًا مع الجانب التشريعي، لأنّ المسلمين كانوا في بداية تكوين الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وهم في أمسّ الحاجة إلى خارطة الطريق، والمنهاجِ القويم، والتشريعِ السّديد الذى يسيرون عليه في حياتهم، سواءٌ أكان في جانب العبادات أم في جانب المعاملات.

فبدأت الآيات مع جانبٍ مهمٍ له حقّ التقديم وهو روحُ الإنسان ونفسُه من خلال عرض التشريع الجنائي وبيان أحكام القِصاص وحِكَمِه. وبعدها ذكرت الآيات أحكام التركات والوصية في المال، وبيانِ مستحقيه، وتحريم العبث بالوصيّة وتبديلها.

ثمّ شرعت السورة في بيان أحكامِ الصيامِ مفصّلةً، وفضلِ الدّعاء، وبعض مسائل الصيام والاعتكاف. وجعلت السورة الأشهر القمريّة هي العمدةُ في المواقيت المتعلّقة بعبادات المسلمين، وبعض معاملاتهم، ومنها الصيامُ والحجُ وحولُ الزّكاة وعِدةُ النساء ومُدة الإيلاء وغير ذلك.

وبعدها ذكرت السورةُ أحكامَ القتالِ وأصولِه وضوابطِه وبيان غاية القتال وهو حمايةُ المنهج ومنعُ الفتنة في الدّين عن طريق الإكراهِ فيه أو التعذيبُ والإيذاءُ للصدِّ عنه. كما أتى الحثُّ على الإنفاق في سبيل القتال لأنه وسيلةٌ للوقاية من التهلكة.

وبعد الجهاد، شَرعت سورة البقرة في ذكر مناسك الحجّ والعمرة، لأن الحجَّ والجهادَ متقاربان في تحمّل المشقة. ثمّ كان الحديث عن صنفين من الناس: المنافقين والمؤمنين مع التحذير من اتباع خطوات الشيطان الرجيم، والأمرِ بالاستسلام لله تعالى، والانقيادِ لحكمه، في جميع أحكامه وشرائعه.

كما تناولت السورة أحكام النفقات الماليّة، والمستحقين لها من الناس، وحفظ المال ممّا يضيّعه كشرب الخمر ولعب القمار. وحثّت الآيات على البرّ في معاملة اليتامى ومخالطتهم في المعيشة بالمعروف.

ثمّ فتحت سورة البقرة ملفات الأحوال الشخصيّة وتشريعات الأسرة بتفاصيلها الدّقيقة من الخِطبة، والزواج، والجِماع، والإيلاء، والطلاق، والخلع، والرضاع، والعِدَّة، والمهر، والنفقات. كلّ هذا الاهتمام لأنّ الأسرة هي النواة الأولى للمجتمع، وفي صلاح الأسرة صلاح المجتمع.

ومن الملاحظ أنّ السورة أسهبت في أحكام الطلاق تحديدًا لخطورة نتائجه، فالنزاع والتفكك داخل الأسرة يؤدي إلى اهتزاز المجتمع وتخلخل لبناته. ولعلّها إشارة إلى: نقطة انطلاق الأمة تكون من الأسرة، لذا يجب بناؤها على الأصول الصحيحة لتساهم في بنيان المجتمع المتراحم المتماسك.

ومن نظام الأسرة انتقلت سورة البقرة إلى نظام الجماعة، إذ بيّنت السورة أنّ قوام الجماعة على القوّة والعزة، ولا صلاح للأسرة إلا بصلاح المجتمع. فساقت السورة قصة طالوت وجالوت، حيث استطاعت فئةٌ قليلةٌ مؤمنةٌ أن تتجاوز كلَّ عقبة في طريقها وانتصرت القلة مع إيمانها على الكثرة مع كفرها وطغيانها، فليست العبرة بكثرة أنصار الباطل بل بصمود أهل الحق وجهادهم في سبيل الحق. وهذا درسٌ مهم لكل صاحب قضيّة.

وكانت أواخر سورة البقرة مع أعظم آية في القرآن هي: آية الكرسي التي جمعت أصول أسماء الله تعالى وصفاته، آيةٌ عظيمة أتت لتبني في نفس المؤمن التصوّر الصحيح عن الإله المستحقّ للعبادة. وما تلاها من تعظيم لله -سبحانه تعالى- واليقينِ بقدرته على فعل كل شيء.

لنعود إلى قصة إبراهيم مرةً أخرى وهو يحاجج النمرود، وقصّةِ الرّجل الصالح الذي أحياه الله بعدما أماته مائة عام، ثمّ نرى إبراهيم -عليه السلام- وهو يطلب من ربّه أن يريَه كيف يحيي الموتى.

ثمّ انتقلت السورة للحديث عن النّظام المالي بدءًا بآيات الصّدقة، تليها آيات الرّبا. أمّا الصّدقة، فهي أحد ركائز النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، والذي ينطلقُ من منظور الإسلام للإنسان والكون والحياة، ذات أثر إيجابيٍّ في التكافل بين أفراد المجتمع وسدّ حاجاتهم بلا مقابل.

أمّا الرّبا، فهو نظامٌ ماليٌّ جاهليّ يهدّد كيان المجتمع ويقوّض بنيانه، لذا نجد الآيات قد شنّت حملةً عنيفةً على المرابين، وأعلنت الحربَ على كل من يتعامل بالرّبا.

وأعقبت آيات الرّبا بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب الذى يُجازَى فيه الإنسان على عمله، إن خيرًا فخير وإن شرًا فنار: ﴿وَاتَّقوا يَومًا تُرجَعونَ فيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وهذه الآية هي آخر ما نزل من القرآن. وبنزول هذه الآية انقطع الوحي، ومات النبي ﷺ.

وبعد البيوع والقروض الرّبوية، ناسب أن يُذكر بعدها القرضُ الحسن بلا ربا ولا فائدة، مع بيان الأحكام الفقهيّة الخاصّة بكتابة العقود، والإشهاد عليها، ومسائل الرّهن حفظًا لحقوق النّاس المالية.

وخُتمت سورة البقرة بتوجيهِ المؤمنين إلى التوبة والإنابة والتضرع إلى الله تعالى برفع الإصر والأغلال، والدعاءِ لما فيه سعادة الدارين:﴿ رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ ﴾.

وهكذا بدأت سورة البقرة بأوصاف المؤمنين وخُتمت بدعاء المؤمنين ليتناسقَ البدء مع الختام ويلتئمَ شمل السورة أفضل التئام. سورة البقرة سورة متعاضدةٌ من حيثُ ارتباط موضوعاتها رغم كثرتها، وكأنّ لسانَ حال هذه السورة يقول: قد فَصّلت لكم كلّ ما تحتاجون إليه من أمور دينكم ودنياكم، وأمور عباداتكم ومعاملاتكم، وأمور حياتكم وآخرتكم. فكونوا منقادين لله! مستسلمين لأمره، راغبين في عبوديتكم له.

سورة البقرة سورةٌ تريد من المسلم أن يعرف حقيقة نفسه: من أين بدأ؟ وكيف خُلق؟ ولماذا خُلق؟ وإلى أين يسير؟ وما هو المصير؟ سورة تجيب على أسئلة الإنسان الأساسيّة الوجوديّة حول الخلق والكون والحياة. سورةٌ ترسم للمسلم خارطة للطريق وتريد منه أن يعرف الإسلام بشموليّته، فيسير على شريعته ومنهجه، ويكونَ منطلقًا من الكتاب ذاته، الذي وصفه الله تعالى في أول سورة البقرة بقوله:﴿ لا رَيبَ فيه هُدًى لِلمُتَّقينَ ﴾.

اللهم اجعلنا من عبادك المتّقين! آمين يا ربّ العالمين.